المعتصم بالله

أعلام الخلفاء
العباسيين

الخليفة العباسي المعتصم بالله

هو الخليفة أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد، الذي عرف بالمعتصم بالله، ولد سنة 180هـ، وكان يقال له: المثمن؛ لأنه ثامن الخلفاء من بني العباس ولأنه استمر في ملكه ثماني سنين وفتح ثمانية فتوح، وأسر ثمانية ملوك.

كان المعتصم شجاعًا، كتب إليه ملك الروم يهدده، فأمر أن يقرؤوا له رسالته، فلما قرأها أمر برميها، وقال للكاتب اكتب: (أما بعد.. فقد قرأت كتابك، وسمعت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) وكانت له فتوحات وغزوات كثيرة في سبيل الله، قيل: إنه لما أراد غزو (عمورية) زعم المنجمون أنه لن ينتصر، وطلبوا منه ألا يخرج، ولكنه خرج وانتصر بإرادة الله.

وهو أَول من لقب بالمعتصم بالله، وأول من أضاف اسم الله إلى لقبه سنة (218 هـ) وأمه أم ولد كذلك.

وكان المعتصم كريم الخلق، متواضعًا، يحكى عنه أنه خرج مع أصحابه في يوم ممطر، وتفرق عنه أصحابه، فبينما هو يسير إذ رأى شيخًا معه حمار عليه حمل شوك، وقد وقع الحمار وسقط الحمل، والشيخ قائم ينتظر من يمر به فيساعده، فنزل المعتصم عن دابته، وخلص الحمار عن الوحل، ورفع عليه حمله وانتظر أصحابه حتى جاؤوا، وأمرهم أن يسيروا مع الشيخ ليعينوه.

كما كان المعتصم سخيًّا، فلقد روى أحمد بن أبي داود: تصدق المعتصم على يدي، ووهب ما قيمته ألف ألف درهم، وفي عهده كثر العمران، وبنيت القصور وارتفع البنيان، وقد مرض المعتصم فأخذ يقول: ذهبت الحيلة، فليس حيلة، ولقي ربه في سنة 227هـ بعد حياة حافلة بالأعمال النافعة للمسلمين.

وكان قوي الساعد، يكسر زند الرجل بين أصبعيه، ولا تعمل في جسمه الأسنان.

قال ابن أبي دؤاد: كان المعتصم يخرج ساعده إلي ويقول: يا أبا عبد الله عض ساعدي بأكثر قوتك فأمتنع فيقول: إنه لا يضرني فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلا عن الأسنان

وقال نفطويه: وكان من أشد الناس بطشا كان يجعل زند الرجل بين أصبعيه فيكسره.

وكان عريا من العلم،ولم يكن على درجة المأمون في معلوماته، بل كان موصوفًا بالجهل، وهو القائل:

" لا حول ولا قوة إلاَّ بالله: خليفة أُمِّيٌ، ووزير عَامِّي "؛ وذلك لما مرت عليه كلمة: الكلأ فلم يعرف معناها، لا هو، ولا وزراؤه.

فروى الصولي عن محمد بن سعيد عن إبراهيم بن محمد الهاشمي قال: كان مع المعتصم غلام في الكتاب يتعلم معه فمات الغلام فقال له الرشيد أبوه: يا محمد مات غلامك قال: نعم يا سيدي واسترح من الكتاب فقال: وإن الكتاب ليبلغ منك هذا دعوه لا تعلموه قال: فكان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة.

وقال الذهبي: كان المعتصم من أعظم الخلفاء وأهيبهم لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن.

وقال نفطوية والصولي: للمعتصم مناقب وكان يقال له: المثمن لأنه ثامن الخلفاء من بني العباس، والثامن من ولد العباس، وثامن أولاد الرشيد وملك سنة ثمان عشرة، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، ومولده سنة ثمان وسبعين، وعاش ثمانيا وأربعين سنة، وطالعه العقرب، وهو ثامن برج، وفتح ثمانية فتوح وقتل ثمانية أعداء، وخلف ثمانية أولاد، ومن الإناث كذلك ومات لثمان بقين من ربيع الأول.

وله محاسن وكلمات فصيحة وشعر لا بأس به غير أنه إذا غضب لا يبالي من قتل

وقال غيره: هو أول خليفة أدخل الأتراك الديوان:

وكان يتشبه بملوك الأعاجم ويمشي مشيهم وبلغت غلمانه الأتراك بضعة عشر ألفا.

وقال ابن يونس هجا دعبل المعتصم ثم نذر به فخاف وهرب حتى قدم مصر ثم خرج إلى المغرب والأبيات التي هجاه بها هذه:

(ملوك بني العباس في الكتب ... ولم يأتنا في ثامن منهم الكتب)
سبعة ... غداة ثووا فيها وثامنهم كلب)
(كذلك أهل الكهف في الكهف ... لأنك ذو ذنب وليس له ذنب)
سبعة ... وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
(وإني لأزهى كلبهم عنك رغبة ... مطالع شمس قد يغص الشرب)
لقد ضاع أمر الناس حيث ... فأنت له أم وأنت له أب)
يسوسهم ...
(وإني لأرجو أن ترى من ...
مغيبها ...
(وهمك تركي عليه مهانة ...

بويع له بالخلافة بعد المأمون وفي شهر رجب سنة ثمان عشرة ومائتين فسلك ما كان المأمون عليه وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن فكتب إلى البلاد بذلك وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك وقاسى الناس منه مشقة في ذلك وقتل عليه خلقا من العلماء وضرب الإمام أحمد بن حنبل وكان ضربه في سنة عشرين.

وفيها تحول المعتصم من بغداد وبنى [سر من رأى] وذلك أنه اعتنى باقتناء الترك فبعث إلى سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب فكانوا يطردون خيلهم في بغداد ويؤذون الناس وضاقت بهم البلد فاجتمع إليه أهل بغداد وقالوا: إن لم تخرج عنا بجندك حاربناك قال: وكيف تحاربونني؟ قالوا: بسهام الأسهار قال: لا طاقة لي بذلك فكان ذلك سبب بنائه [سر من رأى] وتحوله إليها.

وفي سنة ثلاث وعشرين غزا المعتصم الروم فكأنهم نكاية عظيمة لم يسمع بمثلها لخليفة وشتت جموعهم وخرب ديارهم وفتح عمورية بالسيف وقتل منها ثلاثين ألفا وسبى مثلهم وكان لما تجهز لغزوها حكم المنجون أن ذلك طالع نحس وأنه يكسر فكان من نصره وظفره ما لم يخف فقال في

ذلك أبو تمام قصيدته المشهورة وهي هذه:

(السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب)
(والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب)
(أين الرواية؟ أم أين النجوم؟ ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب)
(وما وتخرصا وأحاديثا ملفقة ... ليست بعجم إذا عدت ولا عرب)

مات المعتصم يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين وكان قد ذلل العدو بالنواحي ويقال: إنه قال في مرض موته:{□□□□□□□} [الأنعام: ٤٤]، ولما احتضر جعل يقول: ذهبت الحيلة فليس حيلة وقيل: جعل يقول: أوخذ من بين هذا الخلق وقيل: إنه قال: اللهم إنك تعلم أني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي ومن شعره:

(قرب النحام واعجل يا غلام ... واطرح السرج عليه واللجام)
(أعلم الأتراك أني خائض ... لجة الموت فمن شاء أقام)

وكان قد عزم على المسير إلى أقصى الغرب ليملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء الأموي عليها فروى الصولي عن أحمد بن الخصيب قال: قال لي المعتصم: إن بني أمية ملكوا وما لأحد منا ملك وملكنا نحن ولهم بالأندلس هذا الأموي فقدر ما يحتاج إليه لمحاربته وشرع في ذلك فاشتدت علته ومات.

وقال الصولي: سمعت المغيرة بن محمد يقول: يقال: إنه لم يجتمع الملوك بباب أحد قط اجتماعها بباب المعتصم ولا ظفر ملك قط كظفره أسر ملك أذربيجان وملك طبرستان وملك استيسان وملك الشياصح وملك فرغانة وملك طخارستان وملك الصفة وملك كابل.

وقال الصولي: وكان نقش خاتمه [الحمد لله الذي ليس كمثله

شيء][1].

المحنة في عهد المعتصم:

اسْتَلَم المعتصم بالله أَمر الخلافة، وابن أَبي دؤاد، على بلاط الخلافة يترجل، وأَذناب الاعتزال من حوله، يواصلون مسيرة الامتحان بخلق القرآن، متسترين بالسلطان، يحثونه على إنفاذ وصية المأمون، ويحسنون له أَنه لا استقرار لِحُكْمِهِ إلاَّ بذلك.

وفي هذه النوبة تسلطت الأَضواء على السجين المكبل، المعذَّب الإمام أَحمد بن حنبل الذي باء المعتصم بالأَمر بضربه في عهده حَتَّى خُلِعَتْ يَدَاه، إذ لم يضرب قبل في عهد المأمون، ولا بعد في عهد الواثق، وإليك خبره في هذا العهد:

بقي أَحمد مقيدًا في بغداد يُنقل من سجن إلى سجن، حتى حُوّل إلى سجن العامة، وكان يصلي بأهل السجن، وهو مقيد، فصار مُكْثُه نحوًا من ثلاثين شهرًا.

وكان يناظره في السجن رجلان هما: أحمد بن محمد بن رباح، وأَبو شعيب الحجام، وكانا كلما فَرَغَا من مناظرته، زاداه قيدًا على قيوده وآلت به الحال إلى إثقاله بالقيود، وجعله في سجن ضيق، مظلم لا نور فيه. وكان دعا ربه أَن لا يرى المأمون، فمات في نفس العام وأحمد يُساق إليه في الطريق مقيدًا بالحديد سنة (218 هـ).

وكان ممن توفي في السجن عام 217 هـ شيخ دمشق ومحدثها أَبو مسهر الغساني عبد الأَعلى بن مسهر ببغداد سنة (218 هـ) في حبس

(1) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى، 1371هـ - 1952م، ص 291، المعارف لابن قتيبة: 392، الاخبار الطوال: 401، تاريخ اليعقوبي 3 / 197، تاريخ الطبري 9 / 118 - 123، مروج الذهب للمسعودي 7 / 102، البدء والتاريخ 6 / 114، تاريخ بغداد 3 / 342، الكامل لابن الأثير 6 / 439 و523 - 528، العبر 1 / 400 - 402، عيون التواريخ 8 / لوحة 118 - 121، فوات الوفيات 4 / 48، الوافي بالوفيات 5 / 139، البداية والنهاية 10 / 295 - 297، الذهب المسبوك للمقريزي: 221، النجوم الزاهرة 2 / 250، تاريخ الخميس 2 / 336، شذرات الذهب 2 / 63، 64.

المأمون؟ لكونه لم يجب إلى القول بأن القرآن مخلوق.

ثم حمل الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - على دابة إلى المعتصم في العشر الأَواخر من رمضان عام (219 هـ)، فيناظره المشؤوم: أحمد البدعة وجمع كثير من أصحابه المعتزلة في مجالس متعددة، يحاجه هذا، ثم يحاجه آخر وهكذا يستلمه واحد بعد آخر وأحمد البدعة، يحاج تارة، وتارة يستعمل " الحرب النفسية " مع الإمام أَحمد السنة، فينظر إليه نظرات الغضب، فإذا انقطع أَحد من أَصحابه في المحاجة، اعترض المشؤوم أحمد البدَعة، ومن المسمين في محاجة الإمام أحمد في مجالس المعتصم، والواثق: عبد الرحمن بن إسحاق، وبرغوث المعتزلي، ورجلان من أَصحاب ابن أَبي دؤاد، لم يسميا.

مواقف من حياته

العلوي الصوفي يحتال للخلاص من سجن المعتصم:

حدثنا أبو محمد عبد الرحمن الوراق المعروف بالصيرفي، ابن أبي العباس محمد بن أحمد الأثرم، المقرئ البغدادي، بالبصرة، في المحرم سنة خمس وأربعين وثلثمائة، بكتاب المبيضة، لأبي العباس أحمد بن عبد الله بن عمار، في خبر العلوي الصوفي، الخارج بالجوزجان، على المعتصم، وهو محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكان عبد الله بن طاهر حاربه، وأسره، وبعث به إلى المعتصم، وهو ببغداد، قال: حدثت أن المعتصم أمر أن يبنى حبس في بستان موسى، كان القيم به مسرور مولى الرشيد.

قال: وكنت أرى أعلى هذا البناء من دجلة إذا ركبتها، إذ كان كالبئر العظيمة، قد حفرت إلى الماء، أو قريب منه، ثم بني فيها بناء على هيأة المنارة، مجوف من باطنه، وهو من داخله مدرج، قد حفر فيه، في مواضع من التدريج، مستراحات، وبني في كل مستراح شبيهاً بالبيت، يجلس فيه رجل واحد، كأنه على مقداره، يكون مكبوباً على وجهه، لا يمكنه أن يجلس فيه، ولا يمد رجليه، فلما قدم محمد، حبس في بيت في

أسفل ذلك الحبس، فلما استقر فيه أصابه من الجهد لضيقه، وظلمته، ومن البرد أمر عظيم، لنداوة، الموضع ورطوبته، فكاد أن يتلف من ساعته.

فتكلم بكلام دقيق سمعه من كان في أعالي البئر ممن وكل بالموضع، فقال: إن كان أمير المؤمنين يريد قتلي، فالساعة أموت، وإن لم يكن يريد قتلي فقد أشفيت عليه.

فأخبر المعتصم بذلك، فقال: ما أريد قتله، وأمر بإخراجه.

فأخرج وقد زال عقله، وأغمي عليه، فطرح في الشمس، وطرحت عليه اللحف، وأمر بحبسه في بيت كان قد بني في البستان، فوقه غرفة، وكان في البيت خلاء إلى الغرفة التي فوقه، وفي الغرفة أيضاً خلاء آخر إلى سطحها، فلم يزل محبوساً فيه حتى تهيأ له الخروج في ليلة الفطر سنة تسع عشرة ومائتين.

قال: فحدثني علي بن الحسين بن عمر بن علي بن الحسين، وهو ابن عم أبيه، قال: أصبحت يوم الفطر، وأنا أتهيأ للركوب إلى المصلى، فأنا أشد منطقتي في وسطي، وقد لبست ثيابي أبادر الركوب إلى المصلى. فما راعني إلا محمد بن القاسم، قد دخل إلى منزلي، فملأني رعباً وذعراً.

وقلت له: كيف تخلصت؟.

فقال: أنا أدبر أمري في التخلص منذ حبست، ووصف لي الخلاء الذي كان في البيت الذي حبس فيه إلى الغرفة التي فوقه، والخلاء الذي كان في الغرفة إلى سطحها.

قال: وأدخل معي يوم حبست، لبد، فكان وطائي وفراشي.

قال: وكنت أرى بغرش، وهي قرية من قرى خراسان، حبالاً تعمل من لبود، وتضفر كما يفعل بالسيور، فتجيء أحكم شيء، فسولت لي نفسي أن أعمل من اللبد الذي تحتي حبلاً وكان على باب البيت، قوم موكلون بي يحفظونني لا يدخل علي أحد منهم، إنما يكلموني من خلف الباب ويناولوني من تحته ما أتقوت به.

فقلت لهم: إن أظفاري قد طالت جداً، وقد احتجت إلى مقراض، فجاءني رجل يميل إلى مذهب الزيدية، بمقراض أحد جانبيه منقوش كأنه

مبرد.

وقلت لهم: إن في هذا البيت فاراً قد آذوني، ويقذرونني إذا قربوا مني، فاقطعوا لي جريدة من النخل أطردهم بها.

فقطعوا لي من بعض نخل البستان، جريدة، فرموا بها إليه، وكنت لا أزال أضرب بها في البيت، أريهم أني أطرد الفار، وأسمعهم صوتها أياماً، ثم قشرت الخوص عنها، وقطعتها على مقدار ما ظننت أنه يعترض في ذلك الخلاء إذا رميت بها، فضممت ما قطعته منها بعضه إلى بعض، وقصصت اللبد، وفتلت منه حبلاً، على ما كنت يعمل بغرش، ثم شددت ما قطعته من الجريدة في رأس الحبل، ثم رميت به في الكوة، وعالجته مراراً حتى اعترض فيها، ثم اعتمدت عليها وصعدت إلى الغرفة، ومن الغرفة إلى السطح، ففعلت ذلك مراراً، في أيام كثيرة، وتمكنت من الحركة لأني بردت بجانب المقراض إحدى حلقتي القيد، ولم يمكنني أن أبرد الأخرى، فكنت إذا أردت الحركة، شددت القيد مع ساقي، وأتحرك، وقد صرت مطلقاً.

فلما كان في هذه الليلة وقد شغل الناس بالعيد وانصرف من كان على الباب من الموكلين، فلم أحس منهم أحداً إلا شيخاً واحداً كنت أسمع كلامه وحركته، وأطلع فأراه.

فصعدت بين العشائين إلى الغرفة، ومن الغرفة إلى السطح، فأشرفت، فإذا المعتصم يفطر والناس بين يديه، والشموع تزهر، فرجعت.

فلما كان في جوف الليل صعدت والناس نيام، ونزلت إلى البستان، فإذا فيه قائد ومعه جماعة، فصاح بي بعضهم: من أنت؟ قلت: مديني من أصحاب الحمام، وكان في البستان منهم جماعة يشرفون على أمر الحمام.

فقال لي: إلى أين تخرج الساعة، اطرح نفسك حتى تصبح، وتفتح الأبواب، فطرحت نفسي بينهم، حتى فتح باب البستان في الغلس، وقد تحرك الناس. فصرت إلى دجلة لأعبر، فوجدت الشيخ الذي كان بقي من الموكلين بي يريد العبور، فنزلت لأعبر، فطلب مني الملاح قطعة، فقلت

له: ما معي شيء، أنا رجل غريب ضعيف الحال.

فقال لي الشيخ: اعبر، فأنا أعطيه عنك، وأعطاه الشيخ عني قطعة، وعبرت حتى جئتك.

قال علي بن الحسين: فقلت له: والله، ما منزلي لك بموضع، فاخرج عني من ساعتك، ولا تقم فيه لحظة، وركبت إلى المصلى.

فصار إلى منزل رجل من الشيعة، فأخفاه[1].

المعتصم وتميم بن جميل:

من لطائف الحكايات ما روي عن أحمد بن أبي دؤاد القاضي إنه قال: جيء بتميم بن جميل إلى المعتصم أسيراً، وكان قد خرج عليه فما رأيت رجلاً عرض عليه الموت فلم يكترث به سواه، ثم دعا بالسيف والنطع، فلما مثل بين يديه نظر إليه، فأعجبه حسنه وقده ومشيه إلى الموت غير مكترث، فأطال الفكر فيه ثم كلمه لينظر أين عقله ولسانه من جماله، فقال: يا تميم! إن كان لك عذر فائت به.

فقال: أما إذ أذن أمير المؤمنين في الكلام فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه. وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. يا أمير المؤمنين! جبر الله بك صدع الدين ولم بك شعث المسلمين، وأخمد بك نار الباطل وأنار بك سبل الحق، إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع القلوب، وايم الله لقد عظمت الجريمة، وانقطعت الحجة وساء الظن إلا فيك، وهو أشبه بك وأليق ثم أنشد يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع :: يلاحظني من حيث ما اتلفت
كامناً : وأي امرئٍ مما قضى الله يفلت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي :: وسيف المنايا بين عينيه مصلت
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة : يسيل عليه السيف فيه ويسكت
يعز على الأوس بن تغلب موقف :: لأعلم أن الموت شيء مؤقت
وما جزعي من أن أموت وإنني : وأكبادهم من حسرة تتفتت
ولكن خلفي صبية قد تركتها :: وقد لطموا حمر الوجوه

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، 112/1، 113.

كـأني أراهـم حـين أنعـى إلـيهم : وصـــــــــــــــــوتوا
فـإن عشـت عاشـوا فـي سـرورٍ :: أذود الــردى عــنهم، وإن مــت
ونعمـــــــــــــــــةٍ : موتـــــــــــــــوا

قال: فبكى المعتصم ثم قال: إن من البيان لسحراً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا تميم، كاد والله أن يسبق السيف العذل. قد غفرت لك الهفوة ووهبتك للصبية.

ثم عقد له ولاية على عمله، وأعطاه خمسين ألف دينار، انتهى. من زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام [1].

الطفيلي الأديب والمأمون:

وروى بعض أهل الأدب أن فتى من أهل الكوفة قد فاق أهل زمانه في الأدب والبيان والفصاحة باللسان ناقداً في صناعته، حافظاً للأقدار، راوياً للأشعار، خبيراً بسير الملوك في الأيام السالفة، بصيراً بالبحث عن أمورهم في الأيام الآنفة، حاذقاً في التصنيف، فائقاً في التأليف، صبيح الوجه، مقبول المشاهد، حلو الشمائل، وكان مع ذلك لا يتوجه له وجه من العمل إلا عارضه فيه عائق، وحال دونه حائل وقدر سابق، فبقي حيناً من الدهر، وقد برز في القدر والمال والجاه من كان عنده في الصناعة متأخراً، فضاق صدره وعيل صبره وضلت وّمقاليده، فخرج إلى بغداد واكترى في بعض خاناتها منزلاً وأجمع رأيه على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكه أو ملكه، وتربص لذلك أن يرى وجهاً إلى أن عزم أمير المؤمنين أن يشرب يوماً هو وصنوه المعتصم، فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سماه ليخلو فيه مع الجواري، منفردين عن سائر الندماء، فظهر خبرهما بذلك. وعرف الناس ذلك اليوم الذي عزم عليه، فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل في ذلك على المأمون وأخيه المعتصم، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وردية، ومن آخر منطقة وخفًّا وسيفاً، ومن آخر برذوناً، ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب واستعد لذلك اليوم، ودخل الحمام سحراً، وتطيب، ولبس وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب: عرف الأمير أني رسول أمير

(1) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، 106/1، 107.

المؤمنين واستأذن لي عليه.

فسعى الحاجب عدواً حتى أخبر المعتصم، فأذن له. فلما دخل عليه، وتمثل بين يديه، قال له: سيدي إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك: أنسيت الوعد، ألم يقدم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يومنا هذا؟ قال المعتصم: لا والله ما نسيت ذلك، ولكن تربصت ساعة. ونمت نوماً لأتقوى بذلك على انتصاب سائر النهار.

فقال الفتى: فعجل الآن أيها الأمير، فإنه أمرني أن لا أفارقك حتى آتيه بك.

فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع في التأهب، ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه، والمعتصم لا ينكر شيئاً من كلام الفتى ويتأمل لطافته وهيئته، ولم يتوهم إلا أنه من بعض خواص المأمون، وأخذ الفتى يحدث المعتصم وأقبل عليه بكليته، ولم يتمكن من سؤاله شهوة لاستماع حديثه، حتى بلغ باب الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته، وأخذ يمشي بين يديه، والحجاب لا ينكرون منه شيئاً ويظنون نه من خدم المعتصم، حتى نزل المعتصم، وأخذ الفتى بركابه، ودخل المجلس، فلما استقر المعتصم في مجلسه جلس الفتى بين يديه، وهو منهمك في نوادره وأخباره والمعتصم مصغ إليه تعجباً مما يسمع من حسن كلامه، وأخبر المأمون أن المعتصم قد وصل ومعه رقيق لا يعرف من هو [1].

فقال المأمون: أخي قد عرف أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغي أن يحضره أحد من الناس إلا من هو عديل النفس. وقد أحسن أخي إذ جعل لنا ثالثاً، فإن المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطل لقيام أحدهما إلى الصلاة وإلى ما لا بد منه، ثم خرج من ساعته فرحاً وليس له همة إلا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتبار قده وعقله، فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع في نفس المأمون نهض قائماً فقبل يد المأمون، وعاد إلى مجلسه وأخذ في نوادره وحديثه ومضحكاته وحسن أخباره

(1) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، 96/1.

وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر، وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم. فساعة يكنيه وساعة يسميه حتى غلب على قلب المأمون، وأظهر الحسد لأخيه في صحبة مثل هذا الغلام وكلامه، وأمر المأمون بإحضار المائدة، فنصبت بأنواع الطعام، فأكلوا وغسلوا أيديهم، ولمجلس الشراب انتقلوا، وأمر المأمون بإحضار الجواري من غير ستارة، فحضرن وأخذن في الغناء، فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به، وبالغناء، ومتى قيل وفيمن قيل، فعز في عين المأمون حتى ملأ عينه، وتزايد حسده لأخيه في صحبة مثله فمس الفتى بولٌ، ولم يجد للمدافعة سبيلاً، فقام وهو متيقن أنهما سيذكرانه، ويتواصفان أمره وحاله، إذا خلا المجلس، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما حتى قال المأمون لأخيه المعتصم يا أبا إسحاق من صاحبك هذا؟ فوالله ما رأيت رجلاً قط أكثر منه أدباً ولا أنظف هيئة ولا اشرف من شمائله.

فقال المعتصم: والله ما أعلم من هو، وإنما جاءني مبكراً برسالة أمير المؤمنين.

فقال المأمون: سألتك بالله يا أخي أهو كذلك؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو.

فقال المأمون: طفيلي، ورب الكعبة، وغضب وأمر الجواري بالنهوض، فنهض وأقبل الفتى راجعاً فلما نظر إلى خلو المجلس من الجواري وإلى تغير وجه المأمون، وقف على رأس المجلس وأقبل بوجهه على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق! كأني بك قد أخذت في نوع الزور والبهتان، وهذا المجلس من المجالس التي لا تحمل المزاح، وما هكذا وعدتني. ثم قل: والله يا أمير المؤمنين، ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا لأنه دائماً أبداً يعرضني لمثل هذا وأشباهه، ويغري بي ويوقعني في كل ورطة.

ثم أقبل على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق، سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتني من ملاعبتك التي لا تحتمل وتؤدي إلى مؤاخذة أمير المؤمنين.

ولم يزل يأتي بهذا وأمثاله حتى شك المأمون في أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال: سألتك بالله يا أخي، بحياتي عليك إلا ما علمتني بحقيقة أمره؟ فقال المعتصم: يا أمير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حياتك وولايتك إن كنت عرفه أو رأيته قط إلا في يومي هذا.

فقال الفتى: كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهري الطويل وفي موضع كذا وكذا، وإن هذا فعله معي أبداً.

فضحك المأمون تعجباً، وقال: ادخل فدخل، وأمره بالجلوس فجلس، ثم قال لك الأمان إن صدقتني.

فصدقه الحديث على وجهه فأعجب من حسن منطقه ولطف مدخله ودقيق تصرفه وأمر بإعادة الجواري إلى مجلسهن، فطربوا سائر يومهم. فقال له المأمون: أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظماً ولا تكتم عني شيئاً.

فقال: نعم، ثم أنشأ يقول:

بينا أنا راقد في البيت مكتئب ... مفكر في حصول الكد والقوت
وليس في البيت لي شيء ألم به ... وبي من الجوع ما يدني إلى الموت
إذا بصوت بباب الدار أسمعه ... والأذن مصغية مني إلى الصوت
ناديت من ذا الذي أرجوه لي فرجاً؟ ... نادى: أنا فرجٌ زن لي كرا البيت

فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه وقال: ثم ماذا؟ قال: يا أمير المؤمنين فخرجت فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكراء، فوعدته بأن يرجع إلي مرة أخرى، فمضى ومضيت على وجهي لا أعلم أين أتوجه، فسألت كل من لقيته من صديق لي كنت أستأنس به فخطر على بالي بيتان من الشعر في ذلك وهما.

غريب الدار ليس له صديقٌ : جميع سؤاله: أين الطريق؟
تعلق بالسؤال لكل شخصٍ :: كما يتعلق الرجل الغريق

فأشرفت يا أمير المؤمنين علي جارية كأنها البدر ليلة كماله، وهي تقول:

ترفق يا غريب فكل حر : يمر بحاله سعةٌ وضيق
وكل ملمةٍ إن أنت فيها :: صبرت لها أتيح لها طريق

ثم قالت: خذ هذه فادفع بها فاقتك، فوالله ما هي إلا مؤاساة من قوت، ورمت إلى صدري بقرطاس، وإذا فيه عشرة دراهم، فرجعت من فوري، فوجدت صاحب الكراء قائماً على الباب، فدفعت إليه خمسة دراهم، واستعنت بالباقي إلى أن وقعت هذه القصة، وهذا الأمر الذي كلفني وحملني على ما فعلت وأنشأ يقول:

لم آتِ فعلاً غير مستحسن : جهلاً بفعل الأحسن الأملح
لكنني في حالة أوجبت :: ضرورة إتيان مستقبح

فأعجب المأمون أمره واستحسنه وأمر له بمائة ألف درهم يصلح بها شأنه وألحقه بمراتب الخاصة، ورفعت منزلته، وصار أقرب الناس إليه، وآخر خارج من عنده وأول داخل إليه، وسمي طفيلي المعتصم، وأنشد للمأمون يوماً يقول:

فاستجمعت مذ رأتك العين
كانت لقلبي أهواء مفرقة : أهوالي
تركت للناس دنياهم ودينهم :: شغلاً بذكرك عن ديني ودنيائي
وصار يحسدني من كنت أحسده : وصرت مولى الورى مذ صرت
مولائي

فاستحسن المأمون الأبيات، وأمر بكتبها على الستارة، وصار الفتى إذا حضر يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هم إلا اقتراح هذه الأبيات إلى أن ينقضي المجلس، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حالته، أرسل إلى الدار التي أشرفت عليه منها الجارية، فإذا هي لرجل من أهل بغداد من مباشريها، وقد مات ولم يخلف ولداً سوى تلك الجارية، وما مات حتى تضعضع حاله، فأعلم المأمون بذلك، فمر بخطبتها للفتى ودفع المهر من عنده وصار الفتى والجارية في نعمة عظيمة بقية عمرهما والله أعلم[1].

مخارق المغني والجارية الحسناء:

وذكر صاحب تاريخ بغداد عن مخارق المغني قال: تطفلت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بتسعين ألف درهم.

قيل له: كيف ذلك؟ قال: شربت معه ليلة إلى الصبح، فلما أصبحنا قلت له: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن أخرج إلى الرصافة، فأتنسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين.

قال: نعم، فأمر البوابين أن يتركوني، فخرجت أتمشى في الرصافة، وإذا بجارية كأن الشمس تشرق من جبينها، فتبعتها ورأيت معها زنبيلاً فوقفت على فاكهاني، واشترت سفرجلة بدرهم، وانصرفت فتبعتها، فالتفتت فرأتني فقالت: يا بن الفاعلة إلى أين؟ قلت: خلفك يا سيدتي؟ فقالت: ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك أحد فيقتلك؟ فتأخرت ومشيت وتمشت أمامي ثم التفتت فرأتني، فشتمتني شتماً قبيحاً ثم جاءت إلى دار كبيرة، فدخلت فيها، وجلست أنا عند الباب، وقد ذهب عقلي ونزلت علي الشمس، وكان يوماً حاراً، فلم ألبث أن جاء فتيان كأنهما بدران على حمارين، فلما وصلا إلى الباب أذن لهما، فدخلا ودخلت معهما، فظنا أن صاحب المنزل قد دعاني، وجيء بالطعام، فأكلنا وغسلنا أيدينا، فقال لنا صاحب المنزل: هل لكم في فلانة؟ فقالوا: إن تفضلت.

قال: فاستدعي بتلك الجارية، فخرجت فإذا هي صاحبتي ووراءها وصيفة تحمل عودها، فوضعته في حجرها فغنت وشربوا

(1) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 97، 98.

وطربوا، وهي تلحظني وتشك في، فقالوا: لمن هذا الصوت؟ فقالت: لسيدي مخارق.

فلم ألبث أن قلت: يا جارية شدي يدك، فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذي تقول عليه. قال: فاستدعيت بمدورة وقضيب وغنيت الصوت الذي قالته الجارية، فقاموا إلي وقبلوا رأسي.

قال: وكان مخارق من أحسن الناس صوتاً، وكان يوقع بالقضيب توقيعاً عجيباً.

قال: ثم غنيت الصوت الثاني والثالث، فكادت عقولهم تطير فقالوا: بالله من أنت يا سيدي؟ فقلت: مخارق.

فقالوا: وما سبب مجيئك؟ قلت: طفيلي أصلح الله شأنكم. وأخبرتهم بخبري.

فقال صاحب البيت لصديقيه: أما تعلمان ني أعطيت في هذه الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها؟ قالا: نعم.

قال: هي له.

فقال صديقاه: علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف درهم.

قال مخارق: فملكوني الجارية، وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها وكلما مررت بالمواضع التي شتمتني فيها أقول: يا مولاتي، أعيدي كلامك فتستحي مني، فأحلف عليها لتعيدنه، فتعيده حتى وصلت إلى أمير المؤمنين فقيل لي أنه انتبه فطلبك في منازل أبناء القواد فلم يجدك، وتغيظ غيظاً شديداً، فدخلت عليه ويدي في يدها، فلما رآني سبني وشتمني، فقلت: يا أمير المؤمنين لا تعجل! وحدثته الحديث فضحك، وقال: ها نحن نكافئهم عنك، فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم، والله أعلم، انتهى[1].

(1) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 107.

توبة المعتصم ورجوعه عن قتل تميم بن جميل:

قال: ووجدت في بعض الكتب قال أحمد بن أبي دواد: ما رأيت رجلا قط أشرف على الموت فما شغله ولا أذهله عما يريد حتى بلغه، وخلصهُ الله عز وجل إلا تميم بن جميل، فإني رأيته بين يدي المعتصم وقد بسط له النطع وانتضى له السيف، وكان رجلا جسيما وسيما فأحب المعتصم أن يستنطقه لينظر أين منظره من مخبره، فقال له: تكلم. فقال: أما إذ أذن أمير المؤمنين فالحمد لله:{ۀ ۀ ہ ہ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮲ ﮳ ﮴ ﮵ ﮶ ﮷} [السجدة: ٧ - ٨]، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين، ولم بك شعث المسلمين إن الذنوب تخرس الألسنة وتخلع الأفئدة وايم الله لقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وساء الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ثم أنشأ يقول

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا ... يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يفلت
وأي امرىء يدلي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت فإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حرها تتفتت
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود العدى عنهم وإن مت موتوا
كأني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا

قال: فاستعبر المعتصم ثم قال: يا تميم قد عفوت عن الهفوة، ووهبتك

للصبية، ثم أمر به ففك حديده وخلع عليه وعقد له على سقي الفرات.[1]

توبة لص من اللصوص عن التعرض للناس:

أخبر أبو بكر الصولي، قال: حدثنا محمد بن القاسم بن خلاد، قال: رفع بعض العمال إلى المعتصم، وكان يلي الخراج بموضع يلي فيه خالد بن يزيد الحرب، أن خالد بن يزيد اقتطع الأموال واحتجن بعضها.

فغضب المعتصم، وحلف ليأخذن أموال خالد، ويعاقبه.

فلجأ خالد إلى أحمد بن أبي دؤاد القاضي، فاحتال حتى جمع بينه وبين خصمه، فلم تقم على خالد حجة.

فعرف ابن أبي دؤاد المعتصم ذلك، وشفع إليه في خالد، فلم يشفعه.

وأحضر خالداً، وأحضر آلات العقوبة، وقد كان قبل ذلك، قبض أمواله، وضياعه، وصرفه عن العمل.

وحضر ابن أبي دؤاد المجلس، فجلس دون الناس.

فقال له المعتصم: ارتفع إلى مكانك.

فقال: يا أمير المؤمنين، ما أستحق إلا دون هذا المجلس.

قال: وكيف؟ قال: الناس يزعمون أن ليس محلي محل من شفع في رجل قرف بما لم يصح عليه فلم يشفع.

قال: ارتفع إلى موضعك.

قال: مشفعاً أو غير مشفع؟ قال: مشفعاً، قد وهبت لك خالداً، ورضيت عنه.

قال: الناس لا يعلمون بهذا.

قال: وقد رددت عليه العمالة، والضياع، والأموال التي له.

قال: ويشرفه أمير المؤمنين بخلع تظهر للعامة.

---

(1) عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، التوابين، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار الكتب العلمية - بيروت، 1403 - 1983، ص 280.

فأمر أن تفك قيوده ويخلع عليه، ففعل به ذلك، ورد إلى حضرته.

فقال ابن أبي دؤاد: قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر، فإن رأى أمير المؤمنين، أن يجعلها صلة له.

قال: لتحمل معه.

فخرج خالد، والناس منتظرون الإيقاع به، فلما رأوه على تلك الحال، سروا، وصاح به رجل: الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب.

فقال: مه، سيد العرب - والله - ابن أبي دؤاد، الذي طوقني هذه المكرمة التي لا تنفك من عنقي أبداً لا أنا.

وفي هذه القضية، يقول أبو تمام الطائي:

::
:
يا سائلي عن خالد وفعاله :: رد فاغترف علماً بغير رشاء
قد كان خطب عاثر فأقاله : رأي الخليفة كوكب الخلفاء
فخرجت منه كالشّهاب ولم تزل :: مذ كنت خرّاجاً من الغمّاء
ما سرّني بخروجه من حجّة : ما بين أندلس إلى صنعاء[1]
::
:

إنقاذ أبي دلف من موت محقق:

كان ابتداء العداوة بين أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد، وبين الإفشين، أن الإفشين كان أغرى المعتصم بأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، لعداوة كانت بينهما، فسلمه إليه المعتصم، فأجمع على قتله من يومه ذاك.

وبلغ الخبر أبا دلف، فارتحل إلى ابن أبي دؤاد، فاستجار به، وعرفه ما قد أشرف عليه.

فجاء ابن أبي دؤاد إلى المعصم ليسأله عن أمره، فوجده نائماً، فكره أن يقيمه وينبهه، وخاف أن يشرع الإفشين في قتل أبي دلف، فجاء إلى الإفشين فقال له: يقول لك أمير المؤمنين، بلغني أنك تريد أن تحدث على القاسم بن عيسى حادثة، ووالله لئن فعلت لأقتلنك، ولم يكن المعتصم

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، 86/85.

أرسله، ولا قال له شيئاً.

فرهب الإفشين أن يقتل أبا دلف.

وعاد ابن أبي دؤاد إلى المعتصم، فقال له: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ليس الكذاب من أصلح بين الناس** -، فقال خيراً، ومنى خيراً، وقد أديت عنك رسالة أحييت بها أهل بيت من المسلمين، وكففت بها أسياف خلق من العرب، بلغني أن الإفشين عزم على قتل القاسم بن عيسى العجلي، فأديت إليه عنك رسالة هي كذا وكذا، فحقنت دم الرجل، ونعشت عياله، وكففت عنك عصيان عجل ومن يتبعها ممن يتعصب له فيتفق عليك من ذلك ما تغتم به، والرجل في يده مشف على القتل.

فقال له المعتصم: قد أحسنت.

ووجه الإفشين إلى ابن أبي دؤاد: لا تأتيني، ولا تقربني.

فقال للرسول: أتؤدي عني كما أديت إلي؟ قال: قل.

قال: قل له: ما آتيك تعززاً من ذلة، ولا تكثراً من قلة، وإنما أنت رجل ساعدك زمان، ورفعك سلطان، فإن جئتك فله، وإن تأخرت عنك فلنفسك.

أخبرني القاضي أبو طالب محمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي، فيما أجاز لي روايته عنه، بعدما سمعته منه، قال: حدثنا محمد بن خلف، وكيع القاضي، قال: أخبرنا موسى بن جعفر، أخو لعس الكاتب، قال: كان أحمد ابن أبي دؤاد حين ولي المعتصم الخلافة، عادى الإفشين وحرض عليه المعتصم، وذكر حديثاً طويلاً، ليس هذا موضعه.

ثم قال فيه: وكان سبب العداوة بين أحمد بن أبي دؤاد، وبين الإفشين، أن الإفشين أراد قتل أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، فاستجار بابن أبي دؤاد، ثم ذكر نحواً مما ذكرته عن أبي رضي الله عنه، إلا أنه لم يقل في خبره أن ابن أبي دؤاد جاء إلى المعتصم فوجده نائماً، ثم عاد فوجده قد انتبه، وقال في آخر حديثه: وإنما أنت رجل رفعتك دولة، فإن جئت فلها، وإن قعدت فعنك.

وأخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، قال: قال أحمد بن أبي

طاهر: كان أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي، في جملة من كان مع الإفشين خيذر ابن كاوس لما خرج لمحاربة بابك، ثم تنكر له، فوجه من جاءه به ليقتله.

وبلغ المعتصم الخبر، فبعث إليه بأحمد بن أبي دؤاد، وقال له: أدركه، وما أراك تدركه، واحتل في خلاصه منه كيف شئت.

قال أحمد: فمضيت ركضاً، حتى وافيته، فإذا أبو دلف واقف بين يديه، وقد أخذ بيده غلامان له تركيان، فرميت بنفسي على البساط، وكنت إذا جئته دعا لي بمصلى.

فقال: سبحان الله، ما حملك على هذا؟ قلت: أنت أجلستني هذا المجلس، ثم كلمته في القاسم بن عيسى، وسألته فيه، وخضعت له، فجعل لا يزداد إلا غلظة.

فلما رأيت ذلك منه، قلت، هذا عبد، وقد أغرقت في الرقة معه فلم تنفع، وليس إلا أخذه بالرهبة.

فقمت، وقلت: كم تراك قدرت في نفسك تقتل أولياء أمير المؤمنين واحداً بعد واحد، وتخالف أمره في قائد بعد قائد؟ قد حملت إليك هذه الرسالة عن أمير المؤمنين، فما تقول؟ فقل، وذل، حتى لصق بالأرض، وبان لي الاضطراب فيه.

فلما رأيت ذلك، نهضت إلى أبي دلف، فأخذت بيده، وقلت: قد أخذته بأمر أمير المؤمنين.

فقال: لا تفعل، يا أبا عبد الله.

فقلت: قد فعلت، وأخرجت القاسم، وحملته على دابة، ووافيت المعتصم.

فلما بصر بي، قال: بك يا أبا عبد الله وريت زنادي، ثم سرد علي خبري مع الإفشين، حديثاً ما أخطأ فيه حرفاً.

ثم سألني: هل هو كما قال؟ فأخبرته أنه لم يخطئ حرفاً واحداً.

وأخبرني أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر، المعروف بالحاتمي،

قال: حدثني أبي، قال: حدثني جدك المظفر بن الحسن، قال: حدثني أبو العباس ابن الفرات قال: حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن ثوابة، قال: كان الإفشين نقم على أبي دلف العجلي، وهو مضموم إليه في حرب بابك، أشياء، فلما ظفر بابك، وقدم سر من رأى، شكاه إلى المعتصم، وسأله ليأمره به، ففعل، ثم سأله أن يطلق يده عليه، فلم يفعل، وكان أحمد بن أبي دؤاد متعصباً لأبي دلف، يقول للمعتصم: إن الإفشين ظالم له، وإنما نقم عليه نصيحته في محاربة بابك، وجده فيها، ودفعه ما كان الإفشين يذهب إليه من مطاولة الأيام، وإنفاق الأموال، وانبساط اليد في الأعمال، وتركه متابعته على ذلك.

فألح الإفشين على المعتصم بالله في إطلاق يده عليه، وكان للإفشين قدر جليل عند المعتصم، يدخل عليه بغير إذن.

قال أبو إسحاق، وأنبأنا أبو عبد الله بن أبي دؤاد، قال: دخلت على المعتصم يوماً، فقال: يا أبا عبد الله، لم يدعني اليوم أبو الحسن الإفشين حتى أطلقت يده على القاسم بن عيسى.

فقمت من بين يديه، وما أبصر شيئاً خوفاً على أبي دلف، ودخلني أمر عظيم، وخرجت فركبت دابتي، وسرت أشيد سير من الجوسق إلى دار الإفشين بقرب المطيرة، أؤمل أن أدرك أبا دلف قبل أن يحدث الإفشين عليه حادثة.

فلما وقفت ببابه، كرهت أن أستأذن فيعلم أني قد حضرت بسبب أبي دلف، فيعجل عليه، فدخلت على دابتي إلى الموضع الذي كنت أنزل فيه، وأوهمت حاجبه أني قد جئت برسالة المعتصم، ثم نزلت، فرفع الستر، فدخلت، فوجدت الإفشين في موضعه، وأبو دلف مقيد بالحديد بين يديه في نطع، وهو يقرعه، ويخاطبه بأشد غضب وأعظم مخاطبة.

فحين قربت منه أمسك، فسلمت، وأخذت مجلسي، ثم قلت للإفشين: قد عرفت حرمتي بأمير المؤمنين، وخدمتي إياه، وموضعي عنده، وموقعي من رأيه، وتفرده بالصنيعة عندي والإحسان، وعلمت مع ذلك ميلي إليك، ومحبتي لك، وقد رغبت إليك فيما يرغب فيه مثلي إلى مثلك، ممن رفع الله

قدره، وأجل خطره، وأعلى همته.

فقال: كل ما قلت كما قلت، وكل ما أردت فهو مبذول لك، خلا هذا الجالس، فإني لا أشفعك فيه.

فقلت: ما جئتك إلا في أمره، ولا ألتمس منك غيره، ولولا شدة غضبك، وما تتوعده به من القتل، لكان في جميل عفوك ما يغني عن كلامك، ولكني لما عرفت غيظك، وما تنقمه عليه، احتجت - مع موقعه مني - إلى كلمة في أمره، واستيهاب عظيم جرمه، إذ كان مثلك في جلالتك إنما يسأل جلائل الأمور.

فقال: يا أبا عبد الله، هذا رجل طلب دمي، ولم تقنعه إزالة نعمتي، ولا سبيل إلى تشفيعك فيه، ولكن هذا بيت مالي، وهذه ضياعي، وكل ما أملك بين يديك، فخذ من ذلك كله ما أردت.

فقلت: بارك الله لك في أموالك وثمرك، لم آتك في هذا، وإنما أتيتك في مكرمة يبقى لك فضلها، وحسن أحدوثتها، وتعتقد بها منة في عنقي، ولا أزال مرتهناً في شكرها.

فقال: ما عندي في هذا شيء البتة.

فقلت له: القاسم بن عيسى فارس العرب وشريفها، فاستبقه، وأنعم عليه، فإن لم تره لهذا أهلاً، فهبه للعرب كلها، وأنت تعلم أن ملوك العجم لم تزل تفضل على ملوك العرب، ومن ذلك ما كان من كسرى إلى النعمان حتى ملكه، وأنت الآن بقية العجم وشريفها، والقاسم شريف العرب، فكن اليوم شريفاً من العجم أنعم على شريف من العرب، وعفا عنه.

فقال: ما عندي في هذا جواب إلا ما سمعت، وتنكر، وتبينت الشر في وجهه.

فقلت في نفسي: أنصرف، وأدع هذا يقتل أبا دلف؟ لا والله، ولكن أمثل بين يديه قائماً، وأكلمه، فلعله أن يستحي، فقمت، وتوهمني أريد الانصراف، فتحفز لي.

فقلت: لست أريد الانصراف، وإنما مثلت بين يديك قائماً، صابراً، راغباً، ضارعاً، سائلاً، مستوهباً هذا الرجل منك.

فكان جوابه أغلظ.

فتحيرت، وقلت في نفسي: أنكب على رأسه، فأقبله. فدخلني من ذلك أنف شديد، وقلت في نفسي: أقبل راس هذا الأقلف؟ لا يكون هذا أبداً.

ثم راجعتني الشفقة على أبي دلف، فقبلت رأسه، وضرعت إليه، فلم يجبني، فأخذني ما قدم وما حدث.

فجلست، وقلت له: يا أبا الحسن، قد طلبت منك، وضرعت إليك، ووضعت خدي لك، ومثلت بين يديك، وقبلت رأسك، فشفعني، واصرفني شاكراً، فهو أجمل بك.

فقال: لا والله، ما عندي غير الذي قلته لك.

فقلت له: أنا رسول أمير المؤمنين إليك، وهو يقول لك: لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً، فإنك إن قتلته قتلت به.

قال: أمير المؤمنين يقول هذا بعد أن أطلق يدي عليه؟ قلت: نعم، أنا رسوله إليك بما قلته لك، فإن كنت في الطاعة فاسمع وأطع، وإن كنت قد خلعت، فقل: لا طاعة، ونفضت في وجهه يدي، ونهضت.

فاضطرب حتى لم يقدر أن يدعو لي بدابتي.

وركبت، فأغذذت السير إلى المعتصم، لأخبره الخبر، وبما اضطررت إليه من تأدية رسالته، لأني علمت أنه لم يقل لي ما قله، إلا وهو يحب استبقاء أبي دلف.

فانتهيت إلى الجوسق في وقت حار، والحجاب جميعاً نيام، والدار خالية، فدخلت حتى انتهيت إلى ستر الدار التي فيها المعتصم، فجلست، وقلت: إن جاء الإفشين دخلت معه وتكلمت، وإن سأل الوصول، أخبرت أمير المؤمنين الخبر كله.

فبينا أنا كذلك، إذ خرج خادم من وراء الستر، فعرفته، ثم دخل وخرج فقال: ادخل.

فدخلت، وقلت: يا أمير المؤمنين، أما لي حرمة؟ أما لي ذمام؟ أما لي حق؟ أما في فضل أمير المؤمنين علي، ونعمته عيدي، ما تجب رعايته؟

فقال: ما لك يا أبا عبد الله؟ ما قصتك؟ اجلس، فجلست.

ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قلت لي اليوم في القاسم بن عيسى قولاً علمت معه أنك أردت استبقاءه وحقن دمه، فمضيت من فوري إلى أبي الحسن الإفشين، ثم قصصت عليه القصة إلى موضع الرسالة التي أديتها عنه إليه، وهو في كل ذلك يتغيظ، ويفتل سباله، حتى إذا أردت أن أعرفه الرسالة التي أديتها عنه، قطع، وقال: يمضي قاضي، وصنيعتي أحمد بن أبي دؤاد إلى خيذر، فيخضع له، ويقف بين يديه، ويقبل رأسه، فلا يشفعه؟ قتلني الله إن لم أقتله، يكررها.

فما استوفى كلامه، حتى رفع الستر ودخل الإفشين، فلقيه بأكبر البر والإكرام، وأجلسه بقربه، وقال: في هذا الوقت الحار يا أبا الحسن؟ فقال: يا أمير المؤمنين، رجل قد عرفت ما نالني منه، وأنه طلب دمي، وقد أطلقت يدي عليه، يجيئني هذا، ويقول لي إنك بعثت إلي تأمرني أن لا أحدث فيه حدثاً، وأني إن قتلته قتلت به.؟ قال: فغضب، وقال: أنا أرسلته إليك، فلا تحدث على القاسم بن عيسى حدثاً.

فنهض الإفشين مغضباً يدمدم، واتبعته لأتلافاه، فصاح بي المعتصم: ارجع يا أبا عبد الله، فرجعت، وقلت: يا أمير المؤمنين، إنه كان بقي شيء ما جرى مني قطعتني بكلامك عن ذكره لك.

قال: تعني الرسالة؟ قلت: نعم.

قال: قد فهمتها، والقاسم يوافيك العشية، فاحذر أن تفوه بشيء مما جرى.

ومضى الإفشين، فأطلق القاسم، وخلع عليه، وحمله، فجاءني القاسم من العشية.

وما أخبرت بالحديث حتى قتل الإفشين ومات المعتصم[1].

وأنا طلقت بلا علة:

عن إسحاق قال: كنا عند المعتصم، فعرضت عليه جارية، فقال: كيف

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص88، 89.

ترونها، فقال واحد من الحاضرين: امرأتي طالق، إن كان الله عز وجل خلق مثلها، وقال الآخر: امرأتي طالق إن كنت رأيت مثلها، وقال الثالث: امرأتي طالق وسكت، فقال: المعتصم إن كان ماذا؟ فقال: إذا كان لا شيء، فضحك المعتصم حتى استلقى، وقال: ويحك ما حملك على هذا؟ قال يا سيدي: هذان الأحمقان طلقا لعلة، وأنا طلقت بلا علة[1].

نديم ينتقم من صاحب بيت المال:

كان على بيت مال المعتصم رجل من أهل خراسان يكنى أبا حاتم، فخرجت لي جائزة فمطلني بها، وكان ابنه قد اشترى جارية مغنية تسمى قاسم بستين ألف درهم، قال: فعملت فيه شعراً وجلست ألاعب المعتصم بالشطرنج في يوم الخمار، وكان يشرب يوماً ويستريح يوماً فيلعب فيه ونلعب بين يديه، فجعلت أنشد:

::
:
لتنصفني يا أبا حاتم :: أو لتصيرن إلى حاكم
فتعطي الحق على ذلةٍ : بالرغم من أنفك ذا الراغم
يا سارقاً مال إمام الهدى :: سيظهر الظلم على الظالم
ستين ألفاً في شرا قاسم : من عللٍ هذا الملك الفئم
::
:

فقال له: ما هذا الشعر؟ فتفازعت كأني أنشدته ساهياً ولجلجت، فقال: أعده فقتل: إن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني، وإنما أريد أن يحرص على أن يسمعه، فقال: أعده ويلك، فأعده، فقال: ما هذا؟ فقتل: أظن صاحب بيت المال مطل بعض هؤلاء الشعراء بشيء له فعمل فيه هذا الشعر، قال: فما معنى قاسم؟ قلت:جارية اشتراها ابنه بستين ألف درهم، قال: وأراني أنا الملك النائم صدق والله قائل هذا الشعر، والله لو عرفته لوصلته لصدقته، رجل مملق وليته بيت المال ليعيش برزقه منذ سنتين، من أين لابنه هذا المال؟ ثم قال لإيتاخ: قيد صاحب بيت المال وابنه حتى تأخذ منهما مائتي

(1) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، المكتب التجاري - بيروت، 193/1.

ألف درهم وول بيت المال غيره[1].

مكافأة بغا على شجاعته:

كان عبد الله بن طاهر قد أهدى للمعتصم شهربين ملمعين ذكر أن خراسان لم تخرج مثلهما، فسأله بغا أن يحمله على أحدهما فأبى وقال: تخير غيرهما ما شئت فخذه، قال: فخرجنا ولم يأخذ شيئاً فلما كنا بطبرستان عرض له قوم من أهلها، فقالوا: أعز الله الأمير! إن في بعض الغياض سبعاً قد استكلب على الناس وأقناهم، فقال: إذا أردت الرحيل غداً فكونوا معي حتى تقفوني على موضعه، قال: فلما رحلنا من غد حضر جماعة منهم فانفرد معهم في عشرين فارساً من غلمانه، ومعه قوسه ونشابتان في منطقته، قال: فصاروا به إلى الغيضة فثار السبع في وجهه من بينهم، قال: فحرك فرسه من بين يديه وأخذ نشابة من النشابتين فرماه في إسته، فمر السهم فيها إلى الريش، وركب السبع رأسه، قال: وعاد بغا إليه فما اجترأ أحد على النزول إليه حتى نزل بغا فوجده ميتاً، قال: فشبرناه فكان من رأسه إلى رأس ذنبه ستة عشر شبراً، ووجدناه أحص الشعر إلا معرفته، قال: فكتبنا بخبره إلى المعتصم، فلحقنا جواب كتابنا بحلوان يذكر فيه أنه قد تفاءلت بقتل السبع، ورجا أن يكون من علامات الظفر ببابك، وأنه قد وجه إلى بغا بالشهربين اللذين كان طلب أحدهما فمنعه، وبسبع خلع من خاصة خلعه وثيابه، وخمس مائة ألف درهم صلة له وجزاء على قتله السبع، قال: وإنما أراد المعتصم بذلك إضراؤه على طاعته ومجاهدة عدوه[2].

يَا دَارُ غَيَّرَكِ الْبِلَى:

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،85/1.
(2) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،112/1.

وحكي أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيه وجمع أهله وأصحابه وأمرهم أن يخرجوا في زينتهم فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم فاستأذن إسحاق بن إبراهيم الموصلي في الإنشاد فأذن له فأنشد شعرا حسنا أجاد فيه إلا أنه استفتحه بذكر الديار وعفائها فقال

(يـاَ دَارُ غَيَّـرَكِ الْبِلَـى وَمَحَـاكِ ⁝ يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي أَبْلاَكِ)

فتطير المعتصم بذلك وتغامز الناس على إسحق بن إبراهيم كيف ذهب عليه مثل ذلك مع معرفته وعمله وطول خدمته للملوك ثم أقاموا يومهم وانصرفوا فما عاد منهم اثنان إلى ذلك المجلس وخرج المعتصم إلى سرَّ من رأى وخرب القصر [1].

فكيف رأيت وجهه؟

قال حمدون بن إسماعيل النديم: حضر العيد فعبّى المعتصم بالله خيله تعبيةً لم يسمع بمثلها ولم ير لأحد من ولد العباس شبيهٌ بها، وأمر بالطريق فمسح من باب قصره إلى المصلى ثم قسم ذلك على القوّاد وأعطى كلّ واحد منهم مصافّه، فلما كان قبل الفطر بيوم حضر القوّاد وأصحابهم في أجمل زيّ وأحسن هيأة فلزموا مصافّهم منذ وقت الظهر إلى أن ركب المعتصم بالله إلى المصلى، فكان الموضع الذي وقع لإبراهيم بن المهدي من بعد الحرسيّ بحذاء مسجد الخوارزمي وإبراهيم واقف وأصحابه في المصاف، فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتبوا في المصاف بالمصير إلى المصلى على التعبية التي حدّها، ولبس ثيابه وجلس على كرسيّ ينتظر مضيّ القواد، فلما انقضى أمرهم تقدّم إلى الرجّالة في المسير بين يديه فتقدّم منهم سبعة آلاف ناشب من الموالي كل ثلاثمائة منهم في زيّ مخالف لزيّ الباقين وأربعة آلاف من المغاربة وأمر الشيعة فكانوا وراءه بالأعمدة وعدّتهم أربعة آلاف، وركبت لا أدري منزلتي أين هي ولا أعرف مرتبتي ولم أعلم أين أسير من الموكب، فلما وضع رجله في

(1) أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية - بيروت، 2،1995/226.

الركاب واستوى على سرجه التفت إليّ وقال: يا حمدون كن أنت خلفي، فلزمت مؤخر دابته، فلما خرج من باب القصر تلقّاه القواد وأصحاب المصافّ يخرج الرجل من مصافه فإذا قرب نزل وسلم عليه بالخلافة فيأمره بالركوب ويمضي حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدي فنزل وسلم عليه بالخلافة فردّ عليه السلام فقال: كيف أنت يا إبراهيم وكيف حالك وكيف كنت في أيامك؟ اركب، فركب، فلما جاوزه التفت إليّ فقال: يا حمدون! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: تذكر، قلت: أي والله يا سيدي، وأمسك، فنظرت في ما قال فلم أجدني أذكر شيئاً في ذلك الموضع مما يشبه ما كنا فيه، فنغص عليّ يومي وما رأيت من حسنه وسروري بالمرتبة التي أهلني بها، وقلت: الخلفاء لا يعاملون بالكذب ولا يجوز أن يسألني عند انصرافي عن هذا الأمر فلا يكون له عندي جواب ولا حقيقة، وتخوفت أن ينالني منه مكروه، فلم أزل واجماً في طريقي إلى وقت انصرافه ثم أجمعت على مغالطته إن أمكنني وأعمل الحيلة في التخلص إن يسألني، فلما استقر في مجلسه وبسط السماط وجلس القوّاد على مراتبهم للطعام أقبلت أخدم وأختلف ليست لي همة غير ما كان قاله لي لا أغفل عن ذلك حتى انقضى أمر السماط ورفع الستر ونهض أمير المؤمنين ودخل الحجرة ومضى إلى المرقد، فلم ألبث أن جاء الخادم وقال لي: أجب أمير المؤمنين، فمضيت فلما دخلت ضحك إليّ وقال: يا حمدون رأيت؟ قلت: نعم يا سيدي قد رأيت، فالحمد لله الذي بلغ بي هذا اليوم وأرانيه فما رأيت ولاسمعت لأحد من الخلفاء والملوك بأجلّ منه ولا أبهى ولا أحسن، قال: ويحك رأيت إبراهيم ابن المهدي؟ قلت: نعم يا سيدي، قال: رأيت سلامه عليّ وردّي عليه ونزوله إليّ؟ قلت: نعم، فقال: إنه لما كان من أمره ما كان، يعني الخلافة، قسم الطريق في يوم عيد من منزله إلى المصلّى كقسمتي إياه في هذا اليوم بين قواده، فوقع موضعي منه الموضع الذي كان به هذا اليوم، فلما حاذاني نزلت فسلّمت عليه فردّ عليّ مثل ما رددته حرفاً حرفاً على ما قال لي، قال: فدعوت له وانفرج عني ما كنت فيه وتخلّى عني الغمّ والكرب، ثم قال: يا حمدون إني لم آكل شيئاً وأنا أنتظر أن تأكل معي فامض إلى حجرة الندماء فإنك تجد إبراهيم هنالك فاجلس إليه وعابثه

وضاحكه وأجر له هذا الحديث وقل له: إنك رأيته في ذلك اليوم فعل بي فعلي به في هذا اليوم وانظر إلى وجهه وكلامه وما يكون منه فعرفنيه على حقيقته واصدقني عنه وعجّل ولا تحتبس، قلت: نعم يا سيدي، فمضيت وقد دُفعتُ إلى أغلظ مما كنت فيه لعلمي بأن إبراهيم لو كان من حجرٍ لأثر فيه هذا القول وتغيّر وظهر منه ما يكره، وخفت أن يكون يأتي بما يسفك به دمه فمضيت حتى دخلت الحجرة فجلست إلى إبراهيم وفعلت ما أمرني به وأنا مبادر خوفاً من خادم يلحقني أو رسول فلا يمكنني معه تحسين الأمر وما يظهر لي منه، فقلت لإبراهيم: كيف رأيت يا سيدي هذا اليوم، أما أعجبك حسنه وما كان من تعبية أمير المؤمنين؟ قال: بلى والله إنه أعجبني فالحمد لله الذي بلّغنيه وأرانيه، وأطنب في الدعاء للمعتصم، فلما أمسك قلت: يا سيدي أذكرك في أيامك وقد ركبت فعبّيت شبيهاً بهذه التعبية وقسمت الطريق مثل هذه القسمة فوقع لأمير المؤمنين الموضع الذي وقع لك واجتزت به فنزل إليك وسلّم فرددت عليه كرده عليك في هذا اليوم، قال: فوالله إن كان إلا أن قلت حتى اربدّ لونه وجفّ ريقه واعتقل لسانه وبقي لا يتكلم بحرف ملياً، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم، فالحمد لله للذي رأيته لأمير المؤمنين، فعل الله به وفعل، قال: فتغنّمت ذلك وقمت وأنا ألتفت ونهضت حتى أتيت المعتصم، فقال لي: هيه يا حمدون! فقلت: يا أمير المؤمنين أتيت إبراهيم وقلت له ما أمرتني به فأظهر سروراً ودعاء وقال كيت وكيت، فقال: والله قال بحياتي؟ قلت: وحياتك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف رأيت وجهه؟ فلم أدر ما أقول فقلت: يا أمير المؤمنين بالله لمّا تركتني من وجه عمّك الذي لا يتبين فيه فرح ولا حزن، فاستضحك ثم أمسك وتخلّص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا ثم رقد، فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائر الندماء فشرب وبرّ إبراهيم وألطفه.قع لك واجتزت به فنزل إليك وسلّم فرددت عليه كرده عليك في هذا اليوم، قال: فوالله إن كان إلا أن قلت حتى اربدّ لونه وجفّ ريقه واعتقل لسانه وبقي لا يتكلم بحرف ملياً، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم، فالحمد لله للذي رأيته لأمير المؤمنين، فعل الله به وفعل، قال: فتغنّمت ذلك وقمت وأنا ألتفت ونهضت حتى أتيت

المعتصم، فقال لي: هيه يا حمدون! فقلت: يا أمير المؤمنين أتيت إبراهيم وقلت له ما أمرتني به فأظهر سروراً ودعاء وقال كيت وكيت، فقال: والله قال بحياتي؟ قلت: وحياتك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف رأيت وجهه؟ فلم أدر ما أقول فقلت: يا أمير المؤمنين بالله لمّا تركتني من وجه عمّك الذي لا يتبين فيه فرح ولا حزن، فاستضحك ثم أمسك وتخلّص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا ثم رقد، فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائر الندماء فشرب وبرّ إبراهيم وألطفه[1].

ولا ترى للئام الناس حسادًا:

ومن ذلك ما حكي أن رجلا من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمة وصار يدخل على حريمه من غير استئذان، وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه: إن لم أحتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني منه، فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به الى منزله فطبخ له طعاما وأكثر فيه من الثوم، فلما أكل البدوي منه قال له احذر أن تقترب من أمير المؤمنين فيشم منك فيتأذى من ذلك، فإنه يكره رائحته ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه، فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتابا إلى بعض عماله يقول فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوي ودفع إليه الكتاب، وقال له امض به إلى فلان، وائتني بالجواب، فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل: فقال له يا بدوي: ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك،

(1) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 75، 76.

ويعطيك ألفي دينار؟ فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأي أفعل. قال: أعطني الكتاب، فدفعه إليه فأعطاه الوزير ألفي دينار، وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي، وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أياما ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي، فحضر فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها فقال له: أنت قلت عني للناس إني أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك مكرا منه وحسدا، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته، وأطعمه الثوم، وما جرى له معه، فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله، ثم خلع على البدوي واتخذه وزيرا، وراح الوزير بحسده وقال المغيرة شاعر آل المهلب:

(آل المهلب قوم إن مدحتهم : كانوا الأكارم آباء وأجدادا)
(إن العرانين تلقاها محسدة :: ولا ترى للئام الناس حسادا)

وخرج المعتصم يوما إلى بعض متصيداته، فظهر له أسد، فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه، أفيك خيرا يا رجل؟ قال: لا. فضحك المعتصم، وقال: قبح الله الجبان[1].

إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم:

وتنبأ رجل في أيام المعتصم فلما حضر بين يديه قال: أنت نبي؟ قال: نعم قال: وإلى من بعثت قال: إليك. قال: أشهد أنك لسفيه أحمق. قال: إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم؟ فضحك المعتصم وأمر له بشيء[2].

عقلك أوردك هذا المكان:

دخل الرقاشي على المعتصم في يوم مطير، فقرب مجلسه ورحب به. وقال له: أقم عندنا يومك نشرب ونطرب. فقال: يا أمير المؤمنين، إني

(1) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 75 - 76.
(2) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، 522/3.

وجدت في الكتب السالفة: أن الله جل ذكره لما خلق العقل قال له: أقبل. فأقبل، ثم قال له: أدبر. فأدبر، ثم قال له: وعزتي، ما خلقت خلقاً أكرم منك عليّ، بك أعطي، وبك أمنع، وبك آخذ. فلو وجدت عقلاً يباع لاشتريته، واضفته إلى عقلي. فكيف أشرب ما يزيل ما معي من العقل؟ قال المعتصم: عقلك أوردك هذا المكان[1].

الصلاة يرحمك الله:

غضب المعتصم على مخارق، فأمر أن يجعل في المؤذنين، فأمهل حتى علم أن المعتصم يشرب وأذنت العصر، فدخل إلى الستر حيث يقف المؤذن للسلام، ثم رفع صوته وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله، فبكى حتى جرت دموعه وبكى كل من حضر، ثم قال: أدخلوه إلي، وأقبل على الحاضرين وقال: سمعتم هكذا قط؟ هذا الشيطان لا يترك أحداً يغضب عليه! ورضي عنه وغناه، وأعاده إلى مرتبته[2].

مر لحمار أبي الهذيل بعلف ولغلامه بطعام:

حضر أبو الهذيل على مائدة المعتصم، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله لا يستحي من الحق؛ غلامي وحماري بالباب. فقال المعتصم لإيتاخ الحاجب: مر لحمار أبي الهذيل بعلف ولغلامه بطعام. فقال أحمد بن أبي دواد: ألا ترى يا أمير المؤمنين إلى متانة دين هذا الشيخ وتفقده لما يلزمه؟ لم يمنعه جلالة مجلسك عما يجب لله عليه في حماره وغلامه، فجعل أحمد ما قدره الناس محوجاً إلى الاعتذار منه شهادةً له بالفضل[3].

والله لا يفلح أبداً على المزح

قال الصولي: كان المعتصم في فتنة الأمين يمضي إلى علي بن الجنيد الإسكافي فيقيم عنده، ولا يقصر علي في خدمته وإكرامه والنفقة عليه -

(1) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م، 131/2.
(2) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 66/3.
(3) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 93/3.

وكان علي أكثر الناس مزاحاً وأحسنهم كلاماً - فآذاه المعتصم في شيء، فقال علي: والله لا يفلح أبداً على المزح، فحفظها المعتصم. فلما دخل بغداد خليفة أمر وصيفاً بإحضار علي فأحضره - وكان عدواً للفضل بن مروان - فضحك المعتصم، وكان يقول: ذلك اليوم اعتقدت أن أنكب الفضل؛ ثم قال: يا علي تذكر حيث وقفت لإبراهيم ابن المهدي بمربعة الحرسي فنزلت فقبلت يده ثم أدنيت ابني هارون فقبل يده وقلت: عبدك هارون ابني، فأمر له بعشرة آلاف درهم؟ قال علي: أذكر لك؛ قال: فإنه ترجل لي اليوم وقبل يدي في ذلك الموضع بعينه، ثم قال لي: عبدك هبة الله ابني، فأدناه فقبل يدي، فأمرت له بعشرة آلاف درهم، ولم تطب له نفسي بغيرها. فقال: بئس والله ما فعل أمير المؤمنين. قال: وكيف ويلك؟ قال: إبراهيم كان أمر لهارون بعشرة آلاف درهم وليست في يده إلا بغداد وحدها، وفي يد أمير المؤمنين من المشرق إلى المغرب. قال: صدقت، أعطوه عشرة آلاف دينار؛ وفرق المعتصم في أهله ثلاثين ألف ألف درهم[1].

وكيف ذاك؟

ومن ملح أخبار القاضي أحمد بن أبي دؤاد، ما حكي: أن المعتصم كان بالجوسق، مع ندمائه، وقد عزم على الاصطباح، فأمر كلاً منهم أن يطبخ قدراً، ونظر سلامة، غلام أحمد بن أبي دؤاد، فقال: هذا غلام ابن أبي دؤاد جاء ليعرف خبرنا، والساعة يأتي، فيقول: فلان الهاشمي، وفلان القرشي، وفلان الأنصاري، وفلان العربي، فيقطعنا بحوائجه عما كنا عزمنا عليه، وأنا أشهدكم أني لا أقضي له اليوم حاجة.

فلم يكن بأسرع من أن دخل إيتاخ، يستأذن لأحمد بن أبي دؤاد. فقال لجلسائه: كيف ترون؟ قالوا: لا تأذن له يا أمير المؤمنين.

قال: سوأة لهذا الرأي، والله، لحمي سنة، أسهل عليّ من ذلك.

فأذن له، فدخل، فما هو إلا أن سلم، وجلس، وتكلم، حتى أسفر وجه المعتصم، وضحكت إليه جوارحه.

ثم قال: يا أبا عبد الله، قد طبخ كل واحد من هؤلاء قدراً، وقد جعلناك

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 142/3.

حكماً في أطيبها.

قال: فلتحضر لآكل، وأحكم بعلم.

فأمر المعتصم بإحضارها، فأحضرت القدور بين يديه، وتقدم القاضي أحمد بن أبي دؤاد، فجعل يأكل من أول قدر أكلاً تاماً.

فقال له المعتصم: هذا ظلم.

قال: وكيف ذاك؟ قال: أراك قد أمعنت في هذا اللون، وستحكم لصاحبه.

قال: يا أمير المؤمنين، ليس بلقمة، ولا باثنتين، تدرك المعرفة بأخلاط الطعام، وعليّ أن أوفي كلاً حقه من الذوق، ثم يقع الحكم بعد ذلك.

فتبسم المعتصم، وقال: شأنك إذاً.

فأكل من جميعها، كما ذكر، ثم قال: أما هذه فقد أجاد صاحبها، إذ كثر خلها وقلل فلفلها، ليشتهي حمضها، وأما هذه فقد أحكمها طباخها، بتقليل مائها، وكثرة ربها، وأقبل يصفها واحدة واحدة، حتى أتى على جميعها، بصفات سر بها أصحابها.

وأمر المعتصم بإحضار المائدة، فأكل مع القوم بأكملهم، أنظف أكل وأحسنه، فمرة يحدثهم بأخبار الأكلة في صدر الإسلام، مثل معاوية بن أبي سفيان، وسليمان بن عبد الملك، وعبيد الله بن زياد، والحجاج، ومرة يحدثهم عن أكلة دهره، مثل ميسرة الرواس، وحاتم الكيال، وإسحاق الحمامي، فلما رفعت الموائد قال له المعتصم: ألك حاجة يا أبا عبد الله؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: فاذكرها، فإن أصحابنا يريدون أن يتشاغلوا بقية يومهم.

فقال: رجل من أهلك يا أمير المؤمنين، قد وطئه الدهر، فغير من حاله، خشن معيشته.

قال: ومن هو؟ قال: سليمان بن عبد الملك النوفلي.

قال: قدر له ما يصحه.

قال: خمسين ألف درهم.

قال: قد أمرت له بها.

قال: وحاجة أخرى. قال: وما هي؟ قال: ضياع هارون بن المعمر توغر بها له. قال: قد فعلت.

قال: فوالله ما برح حتى سأل في ثلاث عشرة حاجة، لا يرده المعتصم عن شيء منها.

ثم قام خطيباً، فقال: يا أمير المؤمنين، عمرك الله طويلاً، فبعمرك يخصب جناب رعيتك، ويلين عيشهم، وتنمو أموالهم، ولا زلت ممتعاً بالسلامة، منعماً بالكرامة، مدفوعاً عنك حوادث الأيام، وغيرها، ثم انصرف.

فقال المعتصم: هذا والله الذي يتزين بمثله، ويبتهج بقربه، أما رأيتم كيف دخل؟ وكيف أكل، وكيف وصف القدور، وكيف انبسط في الحديث، وكيف طاب به أكلنا؟ والله لا يرد هذا عن حاجة إلا لئيم الأصل، خبيث الفرع، والله، لو سألني في مجلسي هذا ما قيمته عشرة آلاف ألف درهم، ما رددته عنها، فإني أعلم أنه يكسبني في الدنيا جمالاً وحمداً وفي الآخرة ثواباً وأجراً [1].

فتنة الإمام أحمد مع الخلفاء العباسيين:

كان في بغداد أيام المأمون تيارات ثقافية متضادة: منها ما كان عليه السلف الصالح من أهل السنة والجماعة الممثل في حلقات أهل الحديث والفقهاء وغيرهم ممن يرجعون إلى النصوص الشرعية. ويثبتون لله ما أثبته لنفسه وما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تأويل ولا تعطيل ومن أبرز هؤلاء: الإمام أحمد ومحمد بن نوح وأحمد بن نصر الخزاعي وغيرهم. ومنها تيار المعتزلة القائلين بخلق القرآن وتأويل آيات الصفات وغير ذلك مما هو معروف من مذهبهم: كالقول بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(1) القاضي التنوخي، نشوار المحاضرة، 375/1.

وكان الرشيد يقاوم القول بخلق القرآن فلم يجرؤ أحد عليه مدة حياته كما روي عن محمد بن نوح قال: سمعت هارون الرشيد يقول: بلغني أن بشرا المريسي زعم أن القرآن مخلوق، علي إن أظفرني الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد قط، فلما مات الرشيد وتولى الأمين أراد المعتزلة حمله على ذلك فأبى.

فلما تولى المأمون الخلافة، وكان يميل إلى المعتزلة ويقربهم وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف من زعماء المعتزلة وكذلك قاضيه أحمد بن أبي دؤاد فأشار عليه ابن أبي دؤاد بإظهار القول بخلق القرآن، فأظهر القول بذلك عام 212 هـ. فكان المأمون يناظر من يغشى مجلسه في ذلك ولكنه لم يلزم بذلك أحدا بل ترك الناس أحرارا فيما يذهبون إليه، فلما كان 218 هـ رأى المأمون حمل الناس وخصوصا العلماء والقضاة والمفتين على القول بخلق القرآن الكريم؛ وكان المأمون آنذاك في الرقة فأرسل إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وهو صاحب الشرطة ببغداد أن يجمع من بحضرته من القضاة ويمتحنهم فيما يقولون ويعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، ويعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله بمن لا يقول بهذا القول وكان ذلك في ربيع الأول من عام 218 هـ.

فثار العلماء حين سمعوا كتاب المأمون إلى نائبه في بغداد وقال واحد منهم: لقيت ثمانمائة شيخ ونيفا وسبعين فما رأيت أحدا يقول بهذه المقالة - يعني خلق القرآن - وقد حبس وعذب وقتل في هذه المحنة خلائق لا يحصون كثرة كما يراه القارئ المتتبع لتلك الحقبة من التاريخ، وصارت هذه المحنة هي الشغل الشاغل للدولة والناس خاصتهم وعامتهم وأصبحت حديث مجالسهم وأنديتهم وحاضرتهم وباديتهم في العراق وغيره وقام الجدل فيها بين العلماء، ووقع امتحان الأمراء للعلماء والقضاة والفقهاء والمحدثين في مصر والشام وفارس وغيرها حتى تناول الإمام البخاري وشيوخه الأجلة الأفذاذ: يحيى بن معين وعلي بن المديني ويزيد بن هارون وزهير بن حرب وغيرهم من الأئمة المجمع على جلالتهم وإمامتهم في

حفظ السنة المطهرة وعلومها.

وأرسل المأمون لصاحب الشرطة في بغداد بأن يوافيه بجواب من امتحن منهم فوافاه بجوابهم وإذا هو يتضمن إنكار هذه المقالة والتشنيع على من قال بها فلم يقتنع المأمون بذلك، فبعث إليه بكتاب ثان يأمره فيه بإشخاص سبعة من المحدثين المشهورين في بغداد أو ثمانية وهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي وأبو مسلم ويحيى بن معين وزهير بن حرب وإسماعيل بن داود وإسماعيل بن أبي مسعود وأحمد بن إبراهيم الدورقي. لكي يمتحنهم وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل. إلا أن ابن أبي دؤاد حذف اسم الإمام أحمد من القائمة لمعرفته بصلابته وشدته في هذا الأمر.

ثم أمر المأمون بعد ذلك بحمل الإمام أحمد ومحمد بن نوح إليه في طرسوس فحملا إليه بأغلالهما فأما محمد بن نوح فمات في أثناء الطريق قبل أن يصل. وأما الإمام أحمد ومرافقوه فبلغهم وفاة المأمون قبل وصولهم فعادوا إلى بغداد، وألقي الإمام أحمد في الحبس. ويقال: إن أحمد دعا على المأمون وكانت وفاة المأمون في عام 218هـ.

ثم تولى الخلافة المعتصم، وكان المأمون قد أوصاه بتقريب ابن أبي دؤاد والاستمرار بالقول بخلق القرآن وأخذ الناس بذلك. وكان أحمد في السجن فاستحضره من السجن، وعقد له مجلسا مع ابن أبي دؤاد وغيره؛ وجعلوا يناقشونه في خلق القرآن، وأحمد يستدل عليه بالنصوص الواردة. ويقول لهم: أعطوني دليلا من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانفض المجلس ذلك اليوم دون شيء، وأمر المعتصم برده إلى السجن. وفي اليوم التالي أحضر من السجن، وعقد المجلس وكان موقفه رائعا جليلا كموقفه في الأمس ورغم المحاولات والمناقشات صمم الإمام أحمد على كلامه، وفشل القوم كفشلهم بالأمس. وانفض الاجتماع، ورد الإمام أحمد إلى السجن، وفي اليوم الثالث أعيد انعقاد المجلس، وأحضر الإمام أحمد من السجن وأعيدت المناقشة. وكان المعتصم عند عقد مجلس المناظرة قد بسط بمجلسه بساطا، ونصب كرسيا جلس عليه وازدحم الناس إذ ذاك كازدحامهم أيام الأعياد، وكان مما دار بينهم أن قال للإمام أحمد: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق قال الله تعالى:{ﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﳴﳵﳶﳷﳸﳹﳺﳻﳼﳽﳾﳿﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽ﴾﴿﵀﵁ﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﵴﵵﵶﵷﵸﵹﵺﵻﵼﵽﵾﵿﶀﶁﶂﶃﶄﶅﶆﶇﶈﶉﶊﶋﶌﶍﶎﶏ﶐﶑ﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇ﷈﷉﷊﷋﷌﷍﷎﷏ﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ﴾}

ئو} [التوبة: ٦].

قال: هل عندك حجة غير هذا؟ قال: نعم قول الله تعالى:{ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﳴﳵﳶﳷﳸﳹﳺﳻﳼﳽﳾﳿﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽ﴾﴿﵀﵁﵂﵃﵄﵅﵆﵇﵈﵉﵊﵋﵌﵍﵎﵏ﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﵴﵵﵶﵷﵸﵹﵺﵻﵼﵽﵾﵿﶀﶁﶂﶃﶄﶅﶆﶇﶈﶉﶊﶋﶌﶍﶎﶏ﶐﶑ﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇ﷈﷉﷊﷋﷌﷍﷎﷏ﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ﴾ [الرحمن: ١ - ٢]، ولم يقل خلق القرآن، وقال تعالى:{ﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﳴﳵﳶﳷﳸﳹﳺﳻﳼﳽﳾﳿﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽ﴾﴿﵀﵁﵂﵃﵄﵅﵆﵇﵈﵉﵊﵋﵌﵍﵎﵏ﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﵴﵵﵶﵷﵸﵹﵺﵻﵼﵽﵾﵿﶀﶁﶂﶃﶄﶅﶆﶇﶈﶉﶊﶋﶌﶍﶎﶏ﶐﶑ﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇ﷈﷉﷊﷋﷌﷍﷎﷏ﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ﴾ [يس: ١، ٢]، ولم يقل المخلوق، فقال المعتصم: أعيدوه للحبس وتفرقوا، فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه ذلك. وقال: هاتوا أحمد بن حنبل فاجتمع الناس، وسمعت لهم ضجة ببغداد فلما جيء به، وقف بين يديه والسيوف قد جردت والرماح قد ركزت والأتراس قد نصبت والسياط قد طرحت.

فسأله المعتصم عما يقول بالقرآن. قال: أقول غير مخلوق، وأستدل بقوله تعالى:{ﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﳴﳵﳶﳷﳸﳹﳺﳻﳼﳽﳾﳿﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽ﴾﴿﵀﵁﵂﵃﵄﵅﵆﵇﵈﵉﵊﵋﵌﵍﵎﵏ﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﵴﵵﵶﵷﵸﵹﵺﵻﵼﵽﵾﵿﶀﶁﶂﶃﶄﶅﶆﶇﶈﶉﶊﶋﶌﶍﶎﶏ﶐﶑ﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇ﷈﷉﷊﷋﷌﷍﷎﷏ﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ﴾ [السجدة: ١٣]، الآية، قال: فإن يكن القول من الله تعالى فإن القرآن كلام الله، وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته ثلاثة أيام وهو يناظرهم، ويظهر عليهم بالحجج القاطعة ويقول: أعطوني دليلا من كتاب الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال المعتصم: قهرنا أحمد وحلف ليضربنه بالسياط، وأمر الجلادين فأحضروا ولما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال: ائتوني بغيرها.

قال أبو عبد الله: ثم صيرت بين العقابين [1]. فعلق الإمام أحمد بالعقابين، ورفع حتى صار بينه وبين الأرض مقدار قبضة، قال أحمد: وشدت يداي وجيء بكرسي فوضع له - يعني للمعتصم - وابن أبي دؤاد قائم على رأسه والناس أجمعون قيام ممن حضر، فقال لي إنسان ممن شهدني: خذ بنابي الخشبتين بيدك، وشد عليهما فلم أفهم ما قال. قال: فتخلعت يداي لما شددت، ولم أمسك الخشبتين، قال أبو الفضل - يعني ابنه صالحا - ولم يزل أبي - رحمه الله - يتوجع منهما من الرسغ إلى أن توفي، قال أبو عبد الله فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث** - [2]. الحديث. فبم تستحل دمي وأنا لم آت شيئا من هذا. يا أمير

(1) والعقابان بضم العين خشبتان يوضع بينهما الرجل ليجلد قاله في تاج العروس.
(2) صحيح البخاري الديات (6484)،صحيح مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (1676)،سنن الترمذي الديات (1402)،سنن النسائي تحريم الدم (4016)، سنن أبو داود الحدود (4352)،سنن ابن ماجه الحدود (2534)،مسند أحمد بن حنبل (382/1)،

المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل كوقوفي بين يديك، يا أمير المؤمنين راقب الله، فلما رأى المعتصم ثبوت أبي عبد الله وتصميمه لان فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن تركته قيل: إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، أو أن يقال: غلب خليفتين فهاجه ذلك، وطلب كرسيا جلس عليه، وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه ثم قال للجلادين: تقدموا وجعل أحدهم يتقدم إلى الإمام أحمد فيضربه سوطين ثم يتنحى ثم يتقدم الآخر فيضربه سوطين، والمعتصم يحرضهم على التشديد في الضرب، ثم قام إليه المعتصم وقال له يا أحمد: علام تقتل نفسك إني والله عليك لشفيق فما تقول؟ فيقول أحمد: أعطوني دليلا من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول به، ثم رجع المعتصم، فجلس فقال للجلاد: تقدم وحرضه على إيجاعه بالضرب ويقول: شدوا قطع الله أيديكم، قال أحمد: فذهب عقلي عند ذلك فلم أفق إلا وقد أفرج عني ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فصليت، فقالوا: صليت والدم يسيل منك فقلت: قد صلى عمر رضي الله عنه وجرحه يثعب دما وكان ذلك في رمضان سنة 218. ثم نقل أحمد إلى بيته واستقر فيه حيث لم يقو على السير فلما برئت جراحه، وقوي جسمه خرج إلى المسجد، وصار يدرس في المسجد ويملي الحديث حتى مات المعتصم.

فلما ولى الواثق منع الإمام أحمد من الاجتماع بالناس وقال: لا تساكني في بلد أنا فيه فأقام الإمام ببغداد مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وذلك مدة خمس سنوات تقريبا.

فلما تولى المتوكل الخلافة سنة 232 بقيت المحنة قائمة خلال عامين من حكمه ثم رفعت سنة 234 وكانت قد بدأت من السنة الأخيرة من خلافة المأمون وهي سنة 218 وانتهت في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة المتوكل سنة 234 حيث أوقف المتوكل أخذ الناس بالمحنة. وأصدر إعلانًا عامًّا في كافة أنحاء الدولة نهى فيه عن القول بخلق القرآن، وتهدد من يخوض في ذلك بالقتل فعم الناس الفرح في كل مكان، وأثنوا على سجايا

سنن الدارمي الحدود (2298).

الخليفة ومآثره ونسوا شروره ورذائله، وسمع الدعاء له من كل جانب، وذكر اسمه مع اسمي الخليفتين أبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز.

وكان المتوكل يكره العلويين، ويسرف في مطاردتهم فجعل المعتزلة يحيكون دسائسهم لدى الخليفة ضد الإمام أحمد، ويتهمونه بالجنوح إلى العلويين، وتتطور المحنة لتأخذ لونا آخر، وتشتد الرقابة على الإمام أحمد وامتدت أعناق أهل الفتنة فاتهموا الإمام أحمد لدى الخليفة أنه يؤوي في بيته أحد العلويين ذوي القدر الخطير ويثور الخليفة فيرسل من فوره إلى بغداد لمفاجأة بيت الإمام أحمد والقبض على العلوي المزعوم، وفي ليلة من الليالي بعد أن نام الناس، وهدأت الحركة وأرخى الليل سدوله على بغداد الهادئة الساكنة سمع أحمد دقا عنيفا على باب داره، فقام إلى الباب ففتحه، فإذا به أمام رجلين وامرأتين، أما الرجلان فهما مظفر حاجب عبد الله بن إسحاق نائب بغداد والآخر ابن الكلبي صاحب البريد. وأما المرأتان فمهمتهما هي مهمة البوليس النسوي في أيامنا هذه. قال مظفر: يقول لك الأمير: إن أمير المؤمنين كتب إليه أن عندك طلبته العلوي، وقال ابن الكلبي: نعم إنك تؤوي في بيتك علويا من أعداء أمير المؤمنين وقد جئنا لأخذه، فقال الإمام أحمد: إني لا أعرف هذا ولا أرى سوى طاعة أمير المؤمنين في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة. وسكت الإمام قليلا سكتة ذكر فيها حرمانه من المسجد بدون مسوغ، واستأنف يقول: إني أتأسف عن تأخري عن الصلاة وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين، قال ابن الكلبي: قد أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته أفتحلف؟ قال أحمد: إن استحلفتني حلفت فأحلفه ابن الكلبي بالله، فحلف وبالطلاق فحلف. وكان نساء الدار والصبيان قد حضروا، وحضر ابنه صالح فقال ابن الكلبي: أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك صالح، وقام مظفر وابن الكلبي ففتشا البيت وفتشت المرأتان النساء فلم يعثروا على شيء وفتشا بيت صالح، فلم يجدا شيئًا وفتشت المرأتان أماكن الحريم وجاءوا بشمعة فأدلوها في البئر، وانصرفوا بعد أن لم يجدوا شيئا.

وتولى ابن الكلبي وصف حال الإمام أحمد للمتوكل من احتباسه عن الجمعة والجماعة بدون مسوغ ومن صدق لهجته فيما يكن لأمير المؤمنين

من السمع والطاعة في المنشط والمكره ومن براءته مما عزاه إليه خصومه، وأذن الله بانكشاف الغمة فجاءه بعد يومين كتاب من علي بن الجهم أن أمير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قذفت به وكان أهل البدع قد مدوا أعناقهم فالحمد لله الذي لم يشمتهم بك.

وأقبلت الخلافة على الإمام تخطب وده وتطلب المؤانسة بقربه والتبرك بدعائه وأخذت الأيام تدبر مولية عن المعتزلة. فمرض ابن أبي دؤاد بالفالج، وجاء بعض أعيان الدولة يتقربون إلى الإمام أحمد بذكر ما نزل بابن أبي دؤاد ويومئون إلى أن كرامة الإمام على الله أوجبت ذلك القصاص فلم يلتفت إليهم الإمام أحمد وصمت ولم يرد، وظهر عليه التبرم بما قالوا.

ومضت الأيام في إدبارها على المعتزلة فغضب الخليفة على ابن أبي دؤاد وقبض على أبنائه وصادر أملاكه وأمواله وجواهره، وأخذ ابن أبي دؤاد إلى بغداد بعد أن أشهد عليه ببيع ضياعه فكان يأتي إلى الإمام أحمد من يحمل إليه تلك الأنباء فيكرم نفسه أن تنزل إلى مستوى الشماتة الرخيص بل كان الخليفة نفسه يرسل إليه كأنه يستفتيه فيما يرى من مصير أموال ابن أبي دؤاود فكان يسكت ولا يجيب بشيء وهو موقف جدير أن يلقي على الناس دروسا في عظمة النفس وشدة الإقبال على جلائل الأمور والانصراف عن سفاسفها وتوافهها رحم الله الإمام أحمد لقد كان إماما في كل مكرمة.

ثم أرسل إليه الخليفة المتوكل كتابا يقول فيه: قد صح نقاء ساحتك، وقد أحببت أن آنس بقربك وأتبرك بدعائك وقد وجهت إليك بعشرة آلاف درهم معونة على سفرك وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه، وحل بالدار نشاط وأنس، ودب فيها بعد الوحشة دبيب الحركة بمن صار يغشاها من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة. قال ابنه صالح: لما جاء كتاب المتوكل بالمال ناداني أبي في جوف الليل فقمت إليه فإذا به يبكي فلما رآني قال: ما نمت ليلتي هذه سلمت من هؤلاء حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم.

فلما كان الصباح جاء الحسين البزاز والمشايخ فقال: يا صالح جئني

بـالميزان وبالـدراهم ثـم أخـذ يـزن المـال ويقـول: وجهـوا هـذا إلـى أبنـاء المهـاجرين وهـذا إلـى أبنـاء الأنصـار وهـذا لفـلان ليفـرق فـي ناحيتـه وهـذا لفلان وهكذا حتى فرقها كلها فلما فرقها أحس أنه فرق معها كربته وتنفس الصعداء ونفض الكيس ثم تصدق به.

وكان لا بد لأحمد من تلبية أمر الخليفة لا خضوعا لقوة السلطان بل وفاء لحق السمع والطاعة الذي فرضه الإسلام لأولي الأمر في غير معصية، فخرج من بغداد إلى سامراء ومعه يعقوب المعروف بقوصرة وهو الرسول الذي حضر إليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب وخرج معه بعض بنيه وكان يعقوب شديد السرور بنجاح مهمته فقد قبل أحمد بن حنبل أن يخرج معه، وكان يدرك مبلغ السرور الذي سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك.

نزل الإمام بسامراء ضيفا على أمير المؤمنين ولم يكن للخليفة من هم بعد أن عرف كل شيء عن أحمد إلا أن يرضيه، وأن لا يحمله علي شيء يكرهه.

عرف الخليفة أن أحمد لا يقبل ماله فلم يكن له بد من النزول على رغبته واحترام إرادته ولكن لا بد من أن يصله في قرابته فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم وتسلم صالح ابنه بأمر الخليفة عشرة آلاف على الفور مكان التي فرقها أبوه ببغداد على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم.

وعرف رجال القصر لهفة الخليفة وشدة إقباله على أحمد وإكباره له فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم كل يخطب وده ويبتغي إليه المنزلة ويحاول أن يسره بما يستطيع.

أمر الخليفة أن تفرش الدار التي هيئت له بالفرش الوثيرة وأن ترتب له ومن معه من بنيه مائدة شهية واسعة وأمر أن يقطع له ملابس فاخرة: طيلسان وقلنسوة وشارات رسمية من السواد الذي اختارته الدولة العباسية شعارا لها.

ويحضر يحيى بن خالد فيقول: إن الخليفة أمرني أن أصير لك مرتبة

في أعلى ويصير ولده المعتز في حجرك تؤدبه بما شئت من أدب القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وجاء يحيى في اليوم التالي يدعوه أن يركب إلى دار المعتز ويقول في لهجة مهذبة: تركب يا أبا عبد الله فيقول الإمام أحمد: ذاك إليكم وكان يومًا مشهودًا في القصر ألبسوه هناك الطيلسان وما أمر له به الخليفة من ألوان الثياب والشارات ويقول بعض الخدم: إن الخليفة كان مع أمه مستترين خلف ستار من ستور القصر يرقب في خفاء ما يكون من أحمد، فلما رآه يدخل أخذته خفة وغشيته هزة من الفرح ولمع السرور في عينيه وقال. يا أمه قد أنارت الدار بدخول أحمد.

يقول ابنه صالح: لما عاد أبي من القصر إلى الدار التي أعدت له نزع عنه الثياب التي أنعم بها عليه. وجعل يبكي ويقول: سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم، ما أحسبني سلمت من دخولي على هذا الغلام فكيف بالخليفة الذي يجب نصحه من وقت أن تقع عيني عليه إلى أن أخرج من عنده؟! ثم التفت إلى الملابس وقال لابنه: وجه بهذه الثياب إلى بغداد لتباع وحذار أن يشتري أحد منكم شيئًا منها.

أما الفرش الوثيرة الطرية فقد نحى نفسه عنها، وألقى بنفسه على مضرية خشنة له، ونظر إلى حجرة في جانب الدار فأمر أن يحول إلى ركن منها وأن لا يسرج فيها سراج قط، وأما المائدة فقد عافها فلم يدخل بطنه شيء منها وكانت شهية حافلة.

وأخيرا بلغ الضجر بالإمام أحمد كل مبلغ وبرم بكل شيء وزهد في كل شيء ولم يعد أبغض إليه من أن يلقى رجال الخليفة حتى كان يدعهم مع بنيه في الدهليز، ويقبل على صلاته ما شاء الله، وكان المرض ينزل به فيراه عافية سابغة لما فيه من عافية احتجابه عنهم. اشتكت عينه مرة فلما برئت ضاق ببرئها وقال لولده صالح: ألا تعجب كانت عيني تشتكي فتمكث حينا حتى تبرأ ثم هي في هذه المرة تبرأ في سرعة. والله لقد تمنيت الموت في الأمر الذي كان أيام المعتصم وإني لأتمنى الموت في هذا، إن هذا فتنة الدنيا وكان ذاك فتنة الدين نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

الجزاء من جنس العمل:

قال المسعري محمد بن وهب: كنت مؤدبًا للمتوكل، فلما استخلف، أدناني، وكان يسألني وأجيبه على مذهب الحديث، والعلم.

وإنه جلس للخاصة يومًا، ثم قام، حتى دخل بيتًا له من قوارير؛ سقفه وحيطانه وأرضه، وقد أجري له الماء فيه، يتقلب فيه.

فمن دخله، فكأنه في جوف الماء جالس.

وجلس عن يمينه: الفتح بن خاقان، وعبيد الله بن يحيى بن خاقان.

وعن يساره: بغا الكبير، ووصيف، وأنا واقف إذ ضحك، فأرم القوم، فقال:

ألا تسألوني من ما ضحكت؟! إني ذات يوم واقف على رأس الواثق، وقد قعد للخاصة، ثم دخل هنا، ورمت الدخول، فمنعت، ووقفت حيث ذاك الخادم واقف، وعنده ابن أبي دواد، وابن الزيات، وإسحاق بن إبراهيم.

فقال الواثق: لقد فكرت فيما دعوت إليه الناس من أن القرآن مخلوق، وسرعة إجابة من أجابنا، وشدة خلاف من خالفنا مع الضرب والسيف، فوجدت من أجابنا رغب فيما في أيدينا، ووجدت من خالفنا منعه دين وورع، فدخل قلبي من ذلك أمر وشك حتى هممت بترك ذلك.

فقال ابن أبي دواد: الله الله يا أمير المؤمنين! أن تميت سنة قد أحييتها، وأن تبطل دينا قد أقمته.

ثم أطرقوا، وخاف ابن أبي دواد، فقال: والله يا أمير المؤمنين، إن هذا القول الذي تدعو الناس إليه لهو الدين الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله، وبعث به نبيه، ولكن الناس عموا عن قبوله.

قال الواثق: فباهلوني [1] على ذلك.

فقال أحمد: ضربه الله بالفالج إن لم يكن ما يقول حقًّا.

وقال ابن الزيات: وهو، فسمر الله بدنه بمسامير في الدنيا قبل الآخرة، إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقا بأن القرآن مخلوق.

وقال إسحاق بن إبراهيم: وهو، فأنتن الله ريحه في الدنيا إن لم يكن ما يقول حقا.

وقال نجاح: وهو، فقتله الله في أضيق محبس.

وقال إيتاخ: وهو، فغرقه الله.

فقال الواثق: وهو، فأحرق الله بدنه بالنار إن لم يكن ما يقول حقًّا من أن القرآن مخلوق، فأضحك أنه لم يدع أحد منهم يومئذ إلا استجيب فيه.

أما ابن أبي دواد، فقد ضربه الله بالفالج، وأما ابن الزيات، فأنا أقعدته في تنور من حديد، وسمرت بدنه بمسامير، وأما إسحاق، فأقبل يعرق في مرضه عرقا منتنا حتى هرب منه الحميم والقريب، وأما نجاح، فأنا بنيت عليه بيتا ذراعا في ذراعين حتى مات، وأما إيتاخ، فكتبت إلى إسحاق بن إبراهيم وقد رجع من الحج فقيده وغرقه، وأما الواثق، فكان يحب الجماع، فقال: يا مخائيل: ابغني دواء للباه.

فقال: يا أمير المؤمنين، بدنك فلا تهده، لا سيما إذا تكلف الرجل الجماع.

فقال: لا بد منه، وإذا بين فخذيه مع ذلك وصيفة.

فقال: من يصبر عن مثل هذه؟

قال: فعليك بلحم السبع، يؤخذ رطل، فيغلى سبع غليات بخل خمر عتيق، فإذا جلست على شربك، فخذ منه زنة ثلاثة دراهم، فإنك تجد بغيتك.

فلها أياما، وقال: علي بلحم سبع الساعة.

فأخرج له سبع، فذبح واستعمله.

قال: فسقي بطنه، فجمع له الأطباء، فأجمعوا على أنه لا دواء له إلا أن

(1) يقال: باهل بعضهم بعضًا، وتبهلوا وتباهلوا، أي: تلاعنوا. والبهلة، وتضم الباء: اللعنة.

يسجر له تنور بحطب الزيتون، حتى يمتلئ جمرا، ثم يكسح ما فيه، ويحشى بالرطبة، ويقعد فيه ثلاث ساعات، فإن طلب ماء لم يسق، ثم يخرج فإنه يجد وجعا شديدا، ولا يعاد إلى التنور إلى بعد ساعتين، فإنه يجري ذلك الماء، ويخرج من مخارج البول.

وإن هو سقي أو رد إلى التنور، تلف.

قال: فسجر له تنور، ثم أخرج الجمر، وجعل على ظهر التنور، ثم حشي بالرطبة.

فعري الواثق، وأجلس فيه، فصاح، وقال: أحرقتموني، اسقوني ماء.

فمنع، فتنفط بدنه كله، وصار نفاخات كالبطيخ، ثم أخرج وقد كاد أن يحترق، فأجلسه الأطباء.

فلما شم الهواء، اشتد به الألم، فأقبل يصيح

ويخور كالثور، ويقول:

ردوني إلى التنور، واجتمع نساؤه وخواصه، وردوه إلى التنور، ورجوا الفرج.

فلما حمي، سكن صياحه، وتفطرت تلك النفاخات، وأخرج وقد احترق واسود، وقضى بعد ساعة[1].

فتح عمورية على يد المعتصم سنة 223 هـ:

في هذه السنة أوقع ملك توفيل بن ميخائيل بأهل سلطته من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة، قتل فيها خلقا كثيراً من المسلمين، وأسر ما لا يحصون كثرة، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات ومثل بمن وقع في أسره من المسلمين فقطع آذانهم وأنوفهم وسمل أعينهم - قبحه الله -.

ولما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالنفير، ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش واستدعى القاضي والشهود فأشهدهم

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11 /294.

أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقه، وثلثه لولده، وثلثه لمواليه وخرج بالجيش إعانة للمسلمين فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وشمر راجعا إلى بلاده وتفارط ولم يمكن الاستدراك فيه، فقال للأمراء أي بلاد الروم أمنع؟ فقالوا: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام وهى عندهم أشرف من القسطنطينية، فعزم على فتحها.

رب وامعتصماه انطلقت : ملء أفواه الصبايا اليتم
صادفت أسماعنا لكنها :: لم تصادف نخوة المعتصم

تجهّز المعتصم جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء، وأخذ معه آلات الحرب والأحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيل والبغال شيئاً لم يسمع بمثله، وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال وقدم المعتصم إليها صبيحة يوم الجمعة لستٍ خلون من رمضان فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها، وقد تحصّن أهلها تحصيناً شديداً وملؤا أبراجها بالرجال والسلاح، وهي مدينة عظيمة كبيرة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كثيرة، وقسم المعتصم الأبراج بالأمراء فنزل كل أمير تجاه الموضع الذي أقطعه وعينه له، ونزل المعتصم قبالة مكان هناك قد أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين، وكان قد تنصّر عندهم وتزوج منهم، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين رجع إلى الإسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه بمكان في السور كان قد هدمه السيل وبنى بناءً ضعيفا بلا أساس، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم من سورها ذلك الموضع الذي دلهم عليه ذلك الأسير فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألحّ عليها المنجنيق لجعلوا فوقها البرادع ليردوا حرة الحجر فلم تعْن شيئاً وانهدم السور من ذلك الجانب وتفسّخ. فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم فلما اجتازوا الجيش في طريقهما أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما من أنتما؟ فقالا: من أصحاب فلان لأمير سموْه من أمراء المسلمين، فحملا إلى المعتصم فقررهما فإذا معهما كتاب من " مناطس "

نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار، وأنه عَازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة على المسلمين ومناجزهم القتال كائناً في ذلك ما كان. فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين فخلع عليهما، وأن يعطى كل غلام منهما بدرة، فأسلما من فورهما، فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع، وأن يوقفا تحت حصن " مناطس " فينثر عليهما الدراهم والخلع، ومعهما الكتاب الذي كتب به مناطس إلى ملك الروم فجعلت الروم تلعنهما وتسبهما، ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط والاحتفاظ من خروج الروم بغتة، فضاقت الروم ذرعاً بذلك، وألحّ عليهم المسلمون في الحصار، وقد زاد المعتصم في المجانيق والدبّابات وغير ذلك من آلات الحرب، ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها، أعمل المجانيق في مقاومة السور وكان قد غنم في الطريق غنماً كثيراً جداً ففرقها في الناس وأمر أن يأكل كل رجل رأساً ويجيء بملء جلده تراباً فيطرحه في الخندق، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج الله إلى ذلك، وبينما الناس في الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنها من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة، فبعث المعتصم من نادى في الناس: إنما ذلك سقوط السور ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً لكن لم يكن ما هدم يسع الخيال والرجال إذا دخلوا، وقوىَ الحصار وقد وكلت الروم بكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه، فضعف ذلك الأمير - وندوا - الذي هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقاه من الحصار فذهب إلى مناطس فسأله نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا: لا نترك ما نحن موكلون بحفظه.

" قال " وندوا ": إن الحرب علىّ وعلى أصحابي، ولم يبق معي أحد إلا جرح، فصيروا أصحابكم على الثلمه يرمون قليلاً وإلا افتضحتم. وذهبت المدينة فأبوا أن يمدوه بأحد ".

فلما يئسَ منهم خرج إلى المعتصم ليجتمع به (ليطلب الأمان على

الذرية) فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد خلت من المقاتلة، فركب المسلمون وتقدموا إلى الثملة، ولم يقدر الروم على دفع المسلمين بعد أن تكاثروا ودخلوا المدينة قهراً وتتابع المسلمون إليها يكبرون وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم وقد حشروهم في كنيسة هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فاحترقت فأحرقوا عن آخرهم، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه النائب وهو مناطس في حصن منيع فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحذاء الحصن الذي فيه " مناطس " فناداه المنادي ويحك يا مناطس! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك فقالوا: ليس بمناطس ها هنا مرتين، فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس: هذا مناطس.. هذا مناطس، فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن وطلع عليه الحسن الرومي فقال له: ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين، فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف في عنقه ثم جِيءَ به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشى إلى مضرب الخليفة مهاناً إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل فأوثق هناك. وأخذ المسلمون من عمورية أموالاً لا تحد ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله، وأمر المعتصم بإحراق ما بقى من ذلك، وبإحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لئلا يتقوى بهما الروم على شيء من حرب المسلمين " [1].

وأما اليوم فـ:

ربَّ وا معتصـــماه انطلقـــت :: مـــلء أفـــواه الصـــبايا اليـــتمِ
لامســـت أســـماعهم لكنهـــا :: لـــم تلامـــس نخـــوة المعتصـــمِ
أمتـــي هـــل لـــكِ بـــين الأمـــمِ :: منبـــرٌ للســـيف أو للقلـــمِ
أتلقـــاكِ وطرفـــي حاســـرٌ خجـــلاً :: مـــــن أمســـــك المنصـــــرمِ
ألإسرائيل تعلـو رايـةٌ فـي حمـى :: المهـــــد وظـــــل الحـــــرمِ
أومـــا كنـــت إذا المـــوت اعتـــدى :: موجـــةً مـــن لهـــبٍ أو مـــن دمِ

(1) نداء الريان في فقه الصوم وفضل رمضان، ص336.

::
:
::
:

كم من امرأة اليوم تقول: وا معتصماه! والإسلاماه! في أفغانستان وفلسطين والفلبين ولا يجيبها مجيب، كم من طفل يقتل! كم من مسجد يهدم! كم من شعيرة لله عز وجل تسحق! ثم لا مجيب يجيب! بلغت الأمة من الذلة والمهانة يوم تركت الجهاد وتخلت عن الدين مبلغاً لا يعلمه إلا الله، يقول عليه الصلاة والسلام: **إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى تراجعوا دينكم** - وبيع العينة منتشر وهي أن تباع السلعة من الرجل ديناً، ثم يشتريها بثمن أقل قسطاً قسطاً ومقدماً وهذا موجود وفاشٍ " وأخذتم أذناب البقر " تتحول الأمة من أمة جهاد إلى أمة مزارعة، والزراعة ليست حراماً، لكن أبطال الإسلام وشباب لا إله إلا الله وحملة التوحيد يتحولون إلى باعة بطاطس، وخيار وباذنجان وجرجير وخس في الأسواق، ويصبح حمل السلاح لا يطيقه إلا القليل، ويصبح الآلاف من الشباب لا يستطيع أحدهم شحن المسدس والرمي به، ولا يحمل الرشاش، بل أجزم جزماً لو اعتدى على كثير من البيوت الآن لما استطاع الشباب المدافعة عن بيوتهم، بعضهم لا يملك سلاحاً، عندهم سكاكين للبصل في المطبخ، والسلاح أصبح كيماوي ومزدوج، وبعضهم عنده سلاح لكنه لا يستطيع أن يرمي، ولا يصيب الهدف، وما لديه تدريب قال تعالى: {وُوْوْوْوْوُ} [الأنفال: ٦٠]، والرسول عليه الصلاة والسلام ربى شبابه على القوة العسكرية وعلى حمل السلاح والأنفة، اسمع إلى أبي تمام يصور معركة المعتصم في عمورية، لما انتهى المعتصم، وعاد إلى بغداد، عاد وعلم النصر فوق رأسه والعلماء يبكون لنصر الله ويفرحون، واستقبلته الأمة ونساء الأمة وأطفال الأمة، لأنهم أثبت عدة للا إله إلا الله، وقف أبو تمام يحيي هذا البطل ويقول:

السيف أصدق إنباءً من الكتبِ :: حده الحد بين الجد واللعبِ
في : من الشعر أو نثرٌ من الخطبِ
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به :: عنك المنى حفلاً معسولة الحلبِ
نظمٌ :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت :: :

ثم قال:

تدبير معتصمٍ بالله منتقم :: : لله مرتقب في الله مرتغب

ثم يروي أبو تمام قصة المنجمين الذين أتوا قبل المعركة إلى المعتصم وقالوا: لا تحاربوهم هذا الشهر، قال: ولمَ؟ قالوا: لأن برج الثور حل علينا، وبرج الثور إذا حل، لا ينتصر المقاتل، قال: آمنت بالله وكفرت بكم، قال: أبو تمام:

أين الرواية أم أين الدراية :: : كم صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذبِ
طلاسم وأحاديثٌ منمقةٌ ليستٍ :: : بنفع إذا عدت ولا غربِ
فالنصر في شهب الأرماح لامعةً :: : بين الخميسين لا في السبعة الشهبِ

فالنصر في السيوف وليس في النجوم

إلى أن يقول في آخرها:

لما رأت أختها بالأمس قد خربت :: : كان الخراب لها أعدى من الجربِ

إلى أن يقول للخليفة: أنت لست الذي انتصر، بل الله الذي رمى بك: {پپپپڀڀ} [الأنفال: ١٧]:

رمى بك الله جنبيها فهدمها :: : ولو رمى بك غير الله لم يصبِ

إنه تدبير الله وقوته{ٹٹٹٹٹٹٹٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ٹٹٹٹ ٹٹٹٹ ٹٹ ٹٹ} [غافر: ٥١، ٥٢]،{ۈۇۇۆۆۈۈۇۇ} [محمد: ٧]،{ڃڃڃڃڃڃڃڃڃڃڃڃڃڃڃڃ ڃڃڃڃ} [آل عمران: ١٦٠]، إن يخذلكم بأعمالكم وتصرفاتكم وأكلكم الربا وسكوتكم على المنكرات؛ تبرج النساء، وانتشار المخدرات، وضياع الشباب:{ڃڃڃڃڃڃڃڃ} [آل عمران: ١٦٠]، من يقدم لكم

النصر؟ فهذه أمور عاشها السلف. [1]

من كلامه:

- لما أحس المعتصم بالموت قال لابنه الواثق ذهب والله أبوك يا هارون لله در أبي العتاهية حيث يقول:

(الموتُ بين الخَلْق مُشْتَرَكٌ : لا سُوقةٌ يَبْقَى ولا مَلِكُ)
(ما ضَرَّ أصحابَ القليل وما :: أَغْنَى عَنِ الأملاكِ ما مَلَكُوا) [2]

- إذا نصر الهوى بطل الرأي[3].

- وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر: أما بعد، فإن المأمون أحله الله دار كرامته رآك لأكثر الذي أنت له فيه أهلاً، وقد جمع الله لك إلى حسن رأيه كان فيك جميل رأيي لما محضته من حسن الطاعة وكرم الوفاء وشكر الإحسان، وقد اتصلت الأخبار بأنك في كفاية من أولياء أمير المؤمنين وأموال خراسان وفي منعة من خاصتك وعامتك عن أن ينالك عدوك أو أحد ممن يخالفك بسوء، فاكتب بشرح ذلك إلى أمير المؤمنين ليعرفه إن شاء الله. فلما وصل كتابه قال عبد الملك لكاتبه إسماعيل بن حماد: ما تقول في هذا الكتاب؟ قال: كتاب تعريض بأنك خارج من طاعته مالك أمر نفسك دونه. قال: فأجبه عنه. فكتب إليه: أما بعد يا أمير المؤمنين فإن حزب الله وإن قلوا وأنصار المؤمنين وإن ضعفوا فهم الغالبون، وما أنا بشيء في ملاقاة عدو أوثق مني بعز دولة أمير المؤمنين، فأما الأيدي فقليلة والأموال فنزرة وفي الله وفي أمير المؤمنين أعظم الغنى. فقبل عذره وحسن موقع كتابه منه[4].

(1) من دروس للشيخ عائض القرني، 146 /4.
(2) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر - بيروت، 103/4.
(3) الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، 82/1.
(4) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 193.

* * *